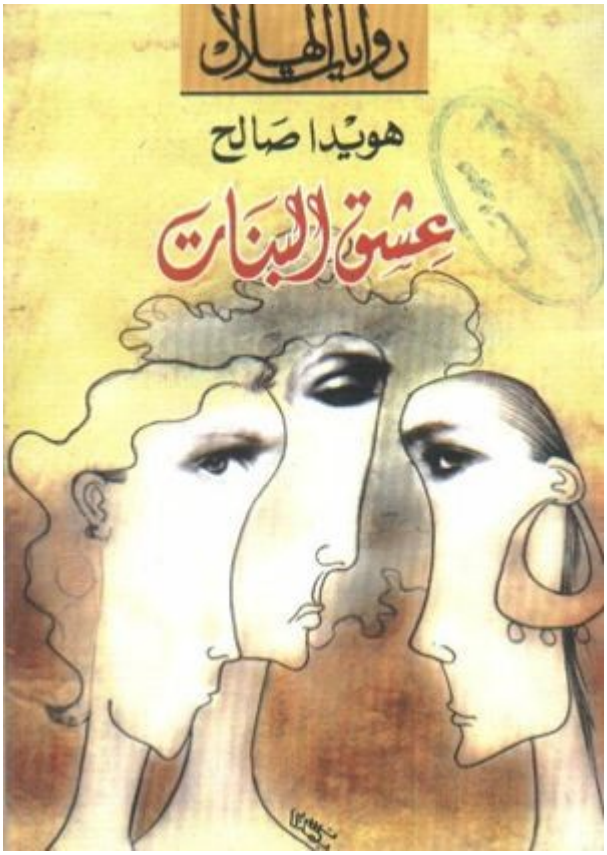
روايات الهلال
هويدا صالح
عشق البنات

عشق البنات

إهداء ..

إلى صباح محمد مرسي، التي تنام في مقبرة بلا اسم .. فقط..
مخصصة للنساء.

1

حتما ستعرفين كيف تُبعدين الأشياء الحارقة عن السطح .

تعرفين كيف تُكوِّرين كرات لهبك وتزيحينها للجوف .لا . بل لأقصى نقطة هناك في الداخل.

ربما بجانب الرحم الذي شال صغيرتك يوما .

ربما تتمرد تلك الأشياء وتتكور على نفسها بعنكوبوتية شديدة ،وتصنع من نفسها خلايا تتمدد وتستطيل . حتما ستفعل ذلك .

تجيد التَّكور تلك الأشياء التي تجاهلتها دوما وادعيتِ واهمة ألا شئ هناك . هناك لا شئ .

فستان العيد القديم الذي أصلحتُه لك أمك . وهللتْ بفرح : شفتي بقى زي الجديد .

امتعضتِ في يأس وأخذته من يدها وارتديته بضيق لا يليق بجمال وبهجة العيد .

دموع أمك أمام الفرن وهي تكوِّر كرات اللهب وتُلقيها في العين الملتهبة .

وتُعدد عدودة حزنها المقدس:

أمي تغطيني بشعر الراس، وتخاف علي من كلام الناس .

يدها الضعيفة، وهي تتحسس الورم الذي يأكل جوفها. بكاؤ ها لأبيك أن يذهب بها إلى الطبيب في المدينة . وانكساره لأنه يفتح محفظته ذات الكباسين الفضية اللامعة ولا يجد فيها نقودا تكفي للسفر ؛فترتد النظرة خائبة ويقوم من أمامها . الألم الرهيب الذي صاحب أيامها الأخيرة.

حالات تقلص المعدة التي تنتابك وأنت تغسلين لها جسدها من أثر التغوط والتبول . ضغط عماتك على أبيك أن يتزوج بامرأة أخرى تحمي شبابه الذي كان ما يزال غضا .

بكاؤك الليلي وأنت تتسمعين لصوت امرأة أبيك وهي تحرضه ضدك، وتقول له البنت كبرت وممكن تجيب لكم العار .

وردة ذابلة وسط كتاب النصوص الذي لم يَهُنْ عليك إلقائها بعد أن دسها لك الولد النحيل .

سطور بعينها في رواية أنا كارنينا ،حين أخذها منك ذات الشاب الذي رافق دراستك ولم يستطع أن يرافق روحك ، وأبعدته بعند لا يليق برهافة امرأة ادَّعتْ ألا شئ هناك .

حزنك الدائم الذي سكن روحك لأنك لم تعطه فرصة يوما للبوح؛ فاكتفى بوضع خطوط باهتة بقلم رصاص أسفل سطور؛ لتخبرك عن خجله ، واحتراقه من أجلك .

لا شئ هناك ، سوى تنهيدة حارقة، وأنت تتذكرين أمك، والأعياد تمر ،والمرأة زوجة أبيك تتسلل بهدوء إلى كل المساحات التي تركتها أمك .

لا شيء هناك، وصوت عماتك يتآمرن ضدك؛ حتى يدفنك أبوك داخل حظيرة ابن عمك.

لا شيء هناك سوى صوت أبيك، وهو يوصيك ألا تمرِّغي شاله في الوحل؛ فظللتِ قيدا ورقيبا على ذاتك، حتى لا يشعر هو بالهزيمة أمام أخوته الذين كرهوا خروجك للمدرسة والجامعة .

لا شئ هناك ، هناك لا شيء سوى رجل تزوجكِ، وأغرقك بحنانه وعطفه ،واعترف بحقك في الحياة، لكن روحه سلبتها كائنات ما تسللت إليه عبر القسوة والقهر؛ فلم يزد على الصمت. ما ذنبه هو .فقط هو أصابه صمت وحزن .ربما غير مبررين لكِ،لكنه صمت؛ ففقدت بقية روحك أمام عطفه وصمته غير المبرر.

لا شيء سوى صغيرة تظل تتعلق في جلبابك البيتي كلما فكرت بينك وبين نفسك أن تذهبي بعيد بروحك التي أصابها العطب، أن تهربي من رتابة وموت محققين إلى عالم أشد رحابة .

وما هذه الأشياء المنسية التي لم تتسرطن مع الخلايا التي تكونت؟!

آه . هي رعشتك البكر وأنت تجلسين أمام الرجل الذي أغرقك بجرأة عينيه ، واحتواك بصوت هامس، كم أربكك ، وهو يردد مثلك النبي محمد!

كم تهللت روحك وأنت تستمعين إليه، وتكتشفين أنه شاركك نفس الأوهام والأحلام رغم الفارق الواضح بينكما في الزمان والمكان!

لا شيء هناك سوى روحك التي كانت تقفز،وهو يحكي لك عن طفولته التي تشبه طفولتك رغم أنه أتى في زمن غير زمنك، وكأن حياتكما تطابقت في زمن ما!

لا شيء سوى رعشتك البكر، وهو يمد يده؛ ليأخذ كوب الشاي وتلمس أصابعه يدك؛ فترتعشين، وتهربين بعينيك بعيدا لأنك تدركين الفرق جيدا بينكما ، ولأن رجلا ، هو زوجك هناك يجلس في اطمئنان بانتظارك كي ما تعودي ، وأن بنتا يتشكل وعيها وتخشين أن تسمع صوتك المرتعش في الهاتف وأنت تسألينه :

أنت فين ...

ستجلسين أمامه، وتقولين بذات الرقابة التي أتقنتها ،وذات الهروب لا شيء هناك؛ فأنت مجرد صديق عرف كيف ومتى ينظر داخلي .

ستدعين أنك لا تشتهين جزيرته التي تخيلك فيها، وأنه جالس تحت قدميك يغسلهما بماء النهر ، ثم يتسلل إليك من خلف، ويقبلك في موضع الرعشة التي لا يعرفها أحد عنك .

ستفعلين هذا لأنك تجيدين تكوير الأشياء وإلقائها في الجوف هناك .

ولكن أبدا لا تدركين أن هذه الأشياء المبعدة قسرا تتحد ضدك الآن ،وأنها تتكور ؛لتصنع كائنا آخر يلتهم روحك .

اذهبي الآن ،واجلسي في شرفتك المظلمة ، اغلقي بابك جيدا؛ حتى لا ترى ابنتك دموعك المنسابة .

يمكن لك أن تداري الدموع بظهر يدك ،وأنت تتظاهرين بعرك عينيك حين تطرق فتاتك الصغيرة الباب، وتعطيك كوب الشاي الساخن.

تنتظر برهة، وتتردد قليلا ، ثم تقول : ماما أنت بتعيطي ..

تستجلبين ابتسامة متعبة ،وتقولين في صوت خافت:

لا يا ماما عينيي اطرفت .

يمكنك أن تتظاهري بالسعادة ؛فتسألينها عن حلقة هانا مونتانا التي تحبها. يمكنك أن تدِّعي الاهتمام، وتستمعين لها بشغف، وهي تحكي عن مغامرة هانا مونتانا في المدرسة .تظاهري بالدهشة والفرح، وهي تخبرك أنها وجدت صورة لهانا على النت وأنها سوف تجعلها خلفية لجهازها . ثم تسمعين صوتك زوجك قادما يحمل أكياس الفاكهة والطعام .

تجففين عيونك وتسرعين إليه . تهمسين في مشقة :

معلش يا بابا السلم طويل .

يضع أحماله، ويجلس على الكنبة دون أن ينتبه للشعيرات الدموية الملتهبة داخل عينيك ،رغم أنك جهزت سيناريو محكم عن فزعك إثر كابوس داهمك ،وأنك تكرهين نوم المغربية ؛لأن الكوابيس تهاجمك بضراوة .

الهواء الذي يحتل المساحة بينك وبين زوجك الجالس بجانبك على الكنبة يعرف أنك تكذبين؛ فيتسلل إلى عيونك ويزيد من حمرتها.

تواصلين دعك عينيك بكفك، وهو يقلب في قنوات التلفزيون دون أن يعي ما يعتصرك من أفكار .

لا شيء هناك، وعليك أن تكوني أقوى من عيون رجل جرئ يعرف أن يباغتك ، وأقوى من أشياء غاضبة أهملتها يوما وأزحتها للداخل .

نعم لا شيء هناك . هناك لا شيء . رددي معي بصوت يسمعه الملاك الجالس هناك يحرسك؛ كي يعينك على طرد بقية الأشياء للداخل .

. لا شئ هناك وأنا بخير . رددي بصوت أعلى : لدي طفلة جميلة تتفتح مثل زهرة يانعة .

أقول لك : خذي بفكرة صديقك،اخلقي كائنات جديدة،امرحي في حيوات أخرى. شكليها كما ينبغي، وكما تريدين ، اختاري أسماء أخرى لك. أنت لم تجعلي من نفسك قديسة كي تكذبي، فقط عيشي ما تبقَّى لك من شهور وأيام في حيوات أخرى أكثر تحرارًا من ذلك الوعد الذي منحتيه لأبيكِ ذات مساء.

اتركي شيئا فريدًا يبقى بعد فوز تلك الأشياء التي لابد لها أن تلتهم روحك.

من قال أن لا شئ هناك ؟

لتعرفي الآن أن كل شئ هناك ! فقط مدي يديك واخرجي كرات اللهب وشكليها من جديد؛ لتكون بردا وسلاما. فكثيرون جدا يعيشون في الحياة،ولكن أحدًا لم يعرف كيف يبقى بعد الموت.

2

مها الحسيني اسمها فقط حين يطرح يستدعي مجموعة من التعليقات مثل :

ـ دي مجرمة .

ـ كل اللي بيدور في دماغها طول الوقت النيلة والطبيخ .

ـ.بس دمها زي العسل.

ـ تعالوا شوفوها في الفصل ترمي الإبرة ترن .

يتبادل الجميع التعليقات الساخرة ولا يفوت غادة أن تعلق :

ـ دي فالجر مش عارفة بتعلم ولاد زي ولادنا إزاي ؟ دول كلاس ولغات وهيه.

تزم شفتيها ،وتغمض عينيها نصف إغماضة.تميل برأسها للوراء قليلاً، وتقول ساخرة :

ـ مش عارفة؟

ساعتها كل من في الحجرة يرمق غادة بعداءٍ ظاهرٍ. تدخل سلوى فتجد صراعًا كاد أن يبدأ فتنهيه بلطف :

ـ مها الحسيني ست بميت راجل .

تغتاظ غادة.لا تدرك أن سلوى أنقذتها من مناقشة ستكون هي الخاسرة حتما إن خاضتها. تشيح بيدها،وتخرج من الحجرة غاضبة .

مها منذ وصلت إلي المدرسة قبل عام حازت على إعجاب الجميع بخفة ظلها وتعليقاتها الساخرة حتى من نفسها.غادة استطاعت، وبمهارة لا تُحسد عليها أن تكسب عداء معظم النساء في المدرسة .إذا ذُكر اسمها تسمع إحداهن تقول لك :

ـ الهانم بتاعة إنجلترا ؟

وترد أخرى مقلدة طريقتها :

ـ ياي دي بيئة .

يضحك الجميع في صخب. ساعتها ترد سلوى على استحياء:

ـ بس صدقوني طيبة جدا.

كثيرًا ما أنقذتها من مها الحسيني وشلتها. حين تدخل حجرة اللغة العربية تسأل عن سلوى، تجد مها جالسة وحولها المدرسات ، وهي تشرح لهن كيفية عمل كفتة داود باشا، والكل منتبه لها وكأنهن سيأكلن الكفتة بمجرد الانتهاء من شرحها. تقف غادة في تعال واستياء ظاهر وتقول :

ـ إنتوا إيه مفيش في دماغكم غير الأكل ؟

ترد مها في سخرية وجدية مصطنعة :

ـ لأ في الحقيقة فيه اللي أهم من الأكل.

تغمز بعينيها الواسعتين، وتضحك.الجميع يرد على ضحكتها بضحك هستيري وإيماءات واضحة ساعتها تعلق غادة :

ـ ظلمكوا اللي عملكوا مدرسات .

تخرج ولا ترد على تعليقات مها التي تقطع الحديث في تلك اللحظة وتقول:

ـ نفسي أنزلها من علي الخازوق اللي قاعدة عليه طول الوقت .

وتعلق أخرى :

ـ دي دايمًا واقفة على ديلها . وتضحك ثالثة في محاولة لتقليد مها :

ـ هو الخازوق طوله قد إيه ؟

يضج الجميع بالضحك وتدخل سلوى وتسأل:

ـ مالكم يا غجر؟!

تضم واحدة منهن شفتيها. تمدها للأمام لمسافة تتعدى السنتيمتر وتقول:

ـ أووو سوفاج .

تدرك سلوى في تلك اللحظة أن غادة حضرت، فتقول بضيق:

ـ هيه وقعت في إيديكم يا غجر؟

ربما كانت غادة تتظاهر بعدم اهتمامها بآراء زميلاتها فيها، ولكنها كانت تدرك أن تمسُّكها بأن تكون نفسها يجعلها منفية من الآخرين، إلا أن الإذعان لما يريده الآخرون يتسبب في شعورها بأنها منفية من ذاتها، هو توتر يبعث في نفسها العذاب.

3

وفاء بنت كانت تفوز بكل الابتسامات الساحرة التي ترتسم على وجوه الفتيان، تخجل أحيانًا حين تفاجئها عيون البنات المتلصصة، وهي تتمايل محتضنة كتبها.تسير بخطوات واثقة أمام الشباب ،وهم يتيهون عشقًا فيها. تتظاهر بعدم الاهتمام،و في الحقيقة كانت تتعمد أن تقف في محيط عيونهم. حين ترى أحدهم لم يلتفت إليها؛تتعمد أن تقوم بأي حركة ملفتة للنظر،حتى تأسره داخل عيونه. كل الفتيات يَغَرْن منها،ويتجنبنها.لم تحاول واحدة منهن الاقتراب منها أو حتى معرفة أي شيء عنها،وهي لم تحاول أن تقترب منهن، ظلت هكذا إلي أن أحبته؛لكنها الحياة ، وحدها القادرة علي كل شيء.

أخيرًا،وبعد محاولات عدة تخللها حقن لإفاقتها من فقد الوعي المتكرر،نجح الطبيب في إدخال فكرة موته في رأسها.حاولت الانتحار مرات عديدة ،وفي كل مرة لا تستطيع.

تجلس وهي تنظر إلي السماء المختفية تحت سطح الحجرة تنادي ملاك الموت الذي خدع حبيبها وأخذه بعيدا عنها. تناديه أن يأتي ويأخذها إليه. أن يكون ملاكًا رحيمًا،ويلقي بها بين أحضانه. إن فعلها سترسم له لوحةً جميلةً خالص. لوحة لا تجعل الناس تخاف منه. ستظهره في هذه اللوحة وسيمًا،وله أجنحة من نور تجعل الناس لا تهرب منه، بل تتمنى أن يضمها بجناحيه النورانيين. لما فشلت في إغواء ملاك الموت؛ قررت أن تُعيد حبيبها من خلال لوحاتها وتماثيلها.

كيف يقسو عليها هذا الزوج الغلس. ألا يعرف أن هذه اللوحات التي يكرهها هي التي تحفظ عليها حياتها ؟! ألا يعرف ذلك الزوج القاسي أن هذه التماثيل التي تنحتها بروحها قبل أصابعها هي التي تمنعها من اللحاق بحبيبها ؟!أصبح مرسمها هو الذي يعطيها القوة اللازمة؛ لتحمَّل جسده الثقيل علي جسدها. ربما لا يشعر بمقدار الألم الذي يسببه لها حين يأتيها كرهًا. تتحمل نفسه ،وهو يجسم فوقها. تتحمل كل شيء خوفًا على لوحاتها ومرسمها.ولما تصرخ متألمة؛يعتقد أنها تصرخ من المتعة.متي تملك القدرة على اتخاذ قرار الانفصال؟!

لا تعرف ما يمنعها من هذه الخطوة: خوفها على أبنائها، أم خوفها من مواجهة زوجة أبيها بفشل جديد يُضاف إلى الخيبات الكثيرة التي تعاني منها ؟

كلما تدفقت أشواقها إلى من ملأ حياتها،وغاب فجأة، كلما تزايدت نبضات قلبها فوق الملامح التي تسكنها،فوق الرعشة التي تستشعرها. حين تنحت ملامحه في تماثيلها، تمارس لعبة الخيال مع ملامح مراوغة، وروح تفر، كل هذا يجعلها تقف في صلابة وعناد. كلما تدفقت الروح ، كلما عاد إليها الوعي،وكلما تحملت قسوة زوجها المتعمدة لإضعاف قوتها الداخلية.

هو يريدها محض جسد في السرير، ومحض طاقة جسدية في المطبخ والبيت ، ولا يريدها أبدا روحا قوية ومحاربة.

وفاء لفتت نظر سلوى منذ أول يوم رأتها واقفة بجانب أمها أمام مبني المدينة الجامعية ، ملابسها الضيقة، وشعرها المتطاير وراء ظهرها. كان مظهرها غريبًا بالمقارنة بفتيات الصعيد. تمَّ قبولها في كلية الفنون الجميلة في جامعة المنيا. كانت تقف ساهمة، والأم تمرر يدها على خدها، وتهمس لها، وهي تبعد يدها في ضيق. لم تسمع سلوى صوت الأم،ولكنها لاحظت شرود الفتاة. بعدها نسيتها في زحمة الحياة في المدينة الجامعية. سمعت كثيرًا حكايات تصور مدى إعجابها بنفسها وجسدها. سمعت أيضا أنها ترسم أجسام الشباب؛ فكانت تخجل كثيرًا حين تتخيلها جالسة أمام شاب شبه عارٍ. ترسمه،وتدقق النظر في وجهه وجسده. ذهبت إلى زميلة لها يوما في مبني كلية التربية. فوجئت بوفاء تجلس على سريرها. ترسم في لوحة تُثبتها على حامل خشبي. نظرت إليها بابتسامة، وقالت لها :

ـ مساء الخير ، أنت ليه مش ساكنة في مبنى فنون ؟

ـ علشان جيت متأخرة؛ فسكنوني في مبنى تربية.

ـ ممكن نتعرف! أنا سلوى زميلتك في المبني اللي وراك ، إيه رأيك في الصعيد ؟

ـ يعني! مش بطّال ، أنا كل اللي يهمني أخلص من السنة دي، وأرجع القاهرة بسرعة .

ـ ممكن نبقي أصحاب ؟

ـ عادي ، إحنا زمايل علي العموم ، مفيش مشكلة . لم تستجب وفاء لمحاولة سلوى التحدث إليها بحميمية.عوَّدتها أمها أن تعشق جسدها. كان يُشاع عنها بين البنات أنها غير طبيعية. كان من الأمور العادية عندها أن تجلس أمام المرآة الكبيرة التي تُعلّقها في حجرتها. تنزلها من على الحائط، ثم تُثبّتها أمامها على السرير. تتأمل جسدها.تقرص خدودها، وتبتسم.تلف كفيها من أسفل كتفيها للخارج مارة على نهديها بشغف. لا تخجل مطلقًا إن دخلت عليها إحدى البنات، وهي علي هذا الوضع الذي يبدو شاذا بالنسبة لهن.إن الروح المجروحة يُمكن أن تمتلئ بالألم إلى الحد الذي لا تستطيع المرأة أن تتحمل المزيد منه ولأن النساء لديهن حاجة في أرواحهن إلي التعبير عن أنفسهن بطرق خاصة، طرق يجب أن تنمو وتزدهر بالصورة التي تشعر بها دون انتقادات الآخرين ، صنعت وفاء لنفسها بديلا يرضيها.كان فنها هو البديل لهذه الحياة الضائعة دونما مبرر عقلي. لا يوجد سبب سوى أنها تعاملت مع هذا الزوج بنفور. اعتبرته سببًا غير منطقي لضياع حبيبها . حمّلته دون وعي أو منطق سبب ضياع

كريم ، سبب موته ستدرك وفاء في يوم، حين تشتد قسوة زوجها، وقهره لروحها، أن آمالها في أن تعيش حياة هانئة، هي وأطفالها، قد تضاءلت شيئًا فشيئًا .أنها يجب أن تفتح الحجرة الداخلية الكابية التي ألقت فيها بكل حطام حياتها. ستفتح في النهاية الباب المؤدي إلي الحجرة الداخلية .عندها تفرُّ الروح الشابة من الحيوان الضاري. لن تسمح لروحها أن تقع في الأسر أكثر من ذلك.أن تتقيد حركتها في الوقت المهيأة فيه للتحرر والانطلاق، رغم أنها لم تُعد لنفسها مكانًا آمنًا إلا أنها قررت الانطلاق، وتحمل النتائج مهما كانت .

4

حين بكت علياء لأمها أن تساعدها على الانتقال للقاهرة؛حتى تكمل دراستها؛أخبرتها أمها أنها تخشى عليها القاهرة ،وأنها غول يأكل روح ساكنيها.لكنها حين رأت الحزن يسكن قلب وحيدتها أقنعت الأب بالموافقة على سفر ابنته.وبقي البحث عن طريقة آمنة تعيش بها فتاة لم تغادر قريتها إلا إلى مدينة المنصورة،حيث حصلت على ليسانس الآداب هناك. ورغم تفوقها وحصولها على درجة الامتياز إلا أنها حرمت من التعيين في الجامعة؛لأن رئيس القسم يرفض تعيين معيدين جدد في قسم اللغة العربية.لم يبق أمامها من فرص سوى جامعة حلوان والحصول على دبلومة في قسم المسرح.أبوها يأخذ منها المواثيق بأن تحافظ على نفسها.انتهى الأمر بأن تسكن مع عمها الذي لم تره سوى مرتين في حياتها.هو ابن خالة أبيها ،ولكنها تذكر أنها كانت تناديه بعمي،وأن أباها أكد لها أن عمها سيفرح بها.مازال الأب قلقا على ابنته ، ولكن المرأة التي تعمل وكيلة في مدرسة ابتدائية تؤكد له أنها ربت فتاة قوية وقادرة على مواجهة غواية المدينة،قالت بحسم :

ـ زرع إيديك يقدر على مواجهة قسوة المدينة، ربيتها على صلابة الروح؛فاطمئن.

وغادرت علياء بصحبة أبيها في اتجاه حلوان؛لتسكن مع ابن خالة أبيها الذي خرج على المعاش وكيل أول وزارة الإنتاج الحربي. توفت زوجته ولم تنجب له طفلا يشاركه الحياة. عاش حياته في فيلا صغيرة في شارع خسرو.يعاقر الوحدة والخمر. ربما فرح لأن علياء بوجهها المريمي ستؤنس وحدته .وربما شعر بالقلق لأنه يخشى أن تقيد هذه الوحدة والحرية التي تمتع بها سنين طويلة منذ وفاة زوجته،لدرجة أنه فضل الحرية على الزواج بأخرى.

ترى كيف ستبدأ الحديث معه؟! لم تعرف كيف تحادثه أمس، وهو يمسك بالزجاجة البلورية المرسوم عليها حصان أسود.شرب كمية كبيرة من الخمر .ثم حياها بجملة وحيدة :

ـ نورت يا علياء بيت عمك.دخل إلي حجرته بعد أن أشار إلى غرفتها التي خصصها لإقامتها.في الصباح أخرجت رأسها من حجرتها متلصصة.دارت برأسها في المكان.لم تجده. دخلت المطبخ المصمم على الطراز الأمريكي والمفتوح على الصالة الواسعة.أعدت كوبا من الشاي. شربته في تكاسل عله يخرج من حجرته.لما تأخر خروجه أخذت حقيبة أوراقها، وخرجت إلى المدرسة التي تقبع في نهاية شارع خسرو.ألقت نظرة على القصر المتواري خلف الأشجار وواصلت السير إلى المدرسة. عمو عمر هكذا نادته علياء منذ أول يوم ،وهكذا رمقها هو في تأمل وتوجس.كائن غريب سيقتحم عليه وحدته. سكونه الذي يشبه جثة مهملة. أصدقاؤه القليلون رتبوا حياتهم على احترام سكونه حينما يرغب . يداعبونه بقولهم : البيات الشتوي بدأ،ويتركونه لحاله. يعيش أيام صمته الإرادي . ربما تمتد الأيام لشهور.لا يجرؤ أحد على الاتصال به إلا إذا قرر هو كسر حالة الصمت. يتصل بهم ويخبرهم في مرح : عندي قزازة بلاك هورس من القرن الماضي،أو جاءتني زجاجة جون ووكر معتقة . تكون تلك الجملة الإيذان ببداية أيام المرح في الفيلا المختفية بين أشجار باسقة في شارع هادئ بحلوان .قد تأتي بعض الصديقات المنسيات، وقد يقتصر الأمر على أصدقائه المقربين ،وحتما تأتي أيام الفرح هذه.الآن كائن بوجه مريمي طفولي يقتحم عليه عالمه. ابتسامة خجلة، يخيل لمن يراها أنها أفلتت من ملاك صغير مَلَّ السماوات البعيدة ،وقرر أن يعيش على الأرض.في اليوم الأول تأمل تحركاتها في المنزل .أربكته قليلا، وهي تُعيد ترتيب الأشياء. ألقى على مسامعها بضعة تحذيرات، فلا تغير أماكن أشيائه الخاصة، ولا ترد على هاتفه، وإن لم يكن موجودا .لا تهذب الحشائش في الحديقة، فهو يحب منظرها الحوشي الذي يُعيد إلى ذهنه صورة براري رآها في مكان ما لا يذكره على وجه الدقة.يد الأطفال تخرب كل شيء. لم يتعود على وجودهم. ربما لأنه لم ينجب قبلا، وربما لأنه كان يرى الحسرة في عيون زوجته حين يزورهم الأصدقاء ومعهم أطفالهم. يدرك أنها ماتت تعيسة ووحيدة، ومن فرط حبها له رفضت أن تتركه من أجل الإنجاب. أنهى أوامره بقوله يد الأطفال تخرب كل شيء، فرفعت حاجبيها دهشة ولم تقل له أنها ليست طفلة .فقط أكتفت بقولها :

ـ أمرك يا عمو. وبذات الابتسامة الطفولية عاشت علياء على هامش الحياة في الفيلا تاركة إياه يعيش في مسالكه المفضية إلى أعماق روحه. سلوكه مجهول تماما لديها وغير مفهوم، لكنها

قادرة على التكيف معه. هو لم يتعوَّد نظرات التطلع إليه، لكنه رآها غير مكدرة لصفوه. تواطأ الاثنان على ألا يزعج أحدهما الآخر ،وألآ يقلق وجوده. في مساء ليلة خريفية شعرت بالضيق والزهق .جلست في حجرتها تذاكر محاضرات الدبلومة التي تدرسها .لم تُدرك أن الباب موارب إلا حين وجدته يتطلع بعيونه الرمادية المرتجفة إلى جسدها البض خلف قميصها القطني الرقيق. فزعت وشدت الملاءة مسرعة؛فارتبك وفر مذعورا مثل فأر صغير.أغلقت باب حجرتها وتكومت في سريرها لا تعرف تبريرا لمساحة الفزع التي تلبستها حين رأت عيونه الرمادية تتأملها.تعمدت ألا تراه.

خلفت وراءها مبنى عتيق لمدرسة كانت في يوم ما قصرا من قصور الخديو. أشجار السرو والنخيل الإفرنجي يلفان المبنى العتيق. حبات سوداء تتساقط من أشجار النخيل ذي السعف العريض . انحنت والتقطت حبة سوداء. قضمتها فامتلأ فمها بالمرارة . تشبه في شكلها حبات عنب الديب التي كانت تنمو على شاطئ النهر في قريتها. لكن طعمها يختلف تماما عن طعم هذه المرارة التي تملأ فمها . طعم عنب الديب يشبه طعم العنب المختلط بطعم البرقوق . الخواء والخوف يملأن قلبها وهي تتجه ساهمة إلى فيلا عمها في شارع خسرو .الشارع يغرق في الظل والصمت إلا من بعض صيحات لتلاميذ صغار يسرعون بجانب أمهاتهم . أصحاب المحلات يجلسون أمام محلاتهم . يرمقونها في نظرات حيادية .الشارع الظليل يذكرها بقصص العشق التي قرأتها قديما. ما زال الخواء يملأ جوفها ومرارة الحبة التي قضمتها تزيدها حزنا .خفف عنها مرارة ما تشعر به ـ الآن ـ تفهم مدير المدرسة لظروف غربتها ودراستها العليا في جامعة حلوان . نظر إليها بعطف أب وأخبرها أنه سيضع لها جدولا مناسبا لظروفها . ما دار في حجرة المدرسات جعلها تبتسم في غير حماس .ضجيجهن المستمر. حماسهن في النقاش حتى في أشد الموضوعات تفاهة. نكاتهن الفاحشة.الكدرة تغطي وجوههن رغم السعادة الظاهرة والمرح الملحوظ .عيونهن كالحة ومنطفئة. بعد الترحيب اللائق بزميلة جديدة ، خصصن لها مكتبا وكرسيا متهالكين.نظراتهن تخترق وجهها الصغير المبتسم في خجل.قالت لها واحدة أنها أصغر مدرسة في الحجرة. وأضافت أخرى هندلعك لأنك آخر العنقود.قاطعتهن على استحياء وقالت ،وهن يتحدثن عن شقاء النساء ،وتعبها في العمل والبيت :

ـ لما أكون ماشية في الشارع و أبص في وجوه الستات أشوف عليها كدرة وشقاء غير مبرر، وعيون دبلانة ومنطفئة،أعرف أن معهن رجالا خائبين فقدوا آدميتهم في اللهاث وراء لقمة العيش.تنهدت زميلة تبدو مركز جلسة النميمة الصباحية وقالت :

ـ غير مبرر إزاي بس.! يا علياء اللي بيحصل فينا قليل؟!أضافت وكأنها لم تستمع لكلام زميلتها

ـ كل امرأة تبدو عليها الكآبة وضياع الروح يبقى معاها راجل معرفش يلمس روحها أكيد.

ردت مها الحسيني التي ستصبح فيما بعد سندا لها ،وستضع حملها عليها طوال الوقت :

ـ كل ست وشها مفيهوش سعادة يبقى معاها راجل حمار لمؤاخذة .

وتعالت ضحكاتهن،وغرقت هي في الصمت.حاولن جذب انتباهها لتشارك في الحديث؛فردت بجمل قصيرة. كان يجلس في الشرفة بانتظارها.دق قلبها، وهي تخطو الخطوات القليلة من باب الحديقة الصغير حتى السلالم القليلة التي تؤدي للشرفة. انشغل بحشو البايب بالدخان وتجاهل وقوفها على أول سلمة في الحديقة .تلكأت قليلا ،ثم صعدت مستندة على الدرابزين الخشبي.

ـ سلام عليكم يا عمو.

ـ الأكل سخن على السفرة ،وأنا مستنيكي.سارت أمامه مرتعشة الخطو،وهي تشعر بعيونه التي تشبه عيون حيوان صغير تنغرس في ظهرها.ألقت نظرة جانبية على المرآة التي تتوسط حائط الصالة الكبيرة.ترى نظرة لا تشبه كل النظرات التي رأتها في عيون الرجال تتأمل ظهرها. حدسها يسرسب إليها مساحة من الفزع تفوق فزع ليلة أمس. تجلس على السفرة تتأمل نشاطه وهمَّته، وهو يأتي بالفوط ودورق الماء الكرستالي .يصب لها كوبا من العصير الطازج :

ـ علشان تبلعي الأكل.ثم أمسك بزجاجة مثلجة من البيرة، وراح يأكل، ويتحدث بحماس. حكى لها أشياء غير مترابطة من حياته. كانت تستمع بحذر وخجل . تدس اللقمة في صمت، وترشف العصير دون أن ترفع عينيها عن نقطة وحيدة في المرآة الكبيرة المذهبة. بين لحظة وأخرى يتأكد من إنصاتها.تهزُّ رأسها في صمت وهو يواصل ثرثرته.

5

لحظة مغايرة وضعت سلوى أمامه. جعلت كل منهما يرى في الآخر منافسًا، وليس حبيبًا، عدوًا، وليس عشيقًا. لحظة مفارقة جعلت كل منهما يرى في الآخر صديقًا لدودًا. ظلت حالة الصراع الدائم ملازمة لهما،حتى أنهيا دراستهما وفرقتهما الحياة؛ دون أن يقول أحدهما للآخر

أنَّه يُحبُّه. كانت كلما أشعلت الضوء في ظلام نفسها بأقصى استطاعتها؛فإنَّ الظلال في الأماكن التي يصلها الضوء ستصبح أكثر ظلامًا. حينما نُضيء جزءًا ما من النفس ستتبعها ظلال أشد ظلمةً. كانت تعمل سلوى بشجاعة حتى لا تذبل قواها الروحية. تعمل بكد وجهد حتى تقدر على إحياء تلك القوى. لم تكن تخاف من معرفة ما هو أسوأ، فقد كان هذا هو الضمان الوحيد لها، حتى لا تقع فريسة لمن يرغب بشدة في أن يمحو روحها، ويحولها إلي تابع تعيش في ظلاله النفسية. رغم ذلك لا يمكن إخفاء الرغبات. لا يمكن إخفاء التساؤلات. الأماكن الأعمق في النفس هي التي تكون أشد ظلمةً.من أجل هذا ظلَّت تتأمل حالها، حتى قررت في لحظة فارقة أن روحها وقوتها أكثر أهمية من علاقتها برجل؛ فداومت على اختلاف لحظات للخلاف والعداوة، كحاجز نفسي ضد الضعف أمامه، وضعت كل الحواجز حتى لا تقع فريسة سهلة أمامه ، فشعورها بالضعف يوهن قوتها الداخلية، ولكنها كانت تفكر دوما :

ـ ما أسعد الرجال الذين يقدرون ببساطة، ويسر على الوقوف أمام حبيباتهم والتصريح بحبهم دون الخوف من الرفض أو جرح الكرامة .

هل يخاف الرجل هو الآخر من الرفض أو النبذ ؟ إذن لماذا يُقدِم دون خوف على الاعتراف لمن يحبها، ولا تقدر المرأة علي ذلك ؟

في اليوم الأول رأته أمامها، يقف على باب الفصل. حين لمحها قادمةً اتَّكأ بكوعه علي الباب، ورمقها بابتسامة لم تفهم معناها .ابتسامة شوق أم تحدي وسخرية ؟ هو لم ينس تفوق مدرستها على مدرسته في أوائل الطلبة. حتما لم ينس سخريتها منه . اقترب منها ، كانت هي البنت الوحيدة وسط أربعة أولاد كلهم أولاد أعمامها. تشجعت بوجودهم، فسخرت منه ومن مدرسته .

تهمس، وهي تراه واقفًا على باب الفصل هكذا :

ـ آه... بدأنا .

قررت ساعتها ألا تسمح له أن ينال منها يومًا .ظلت تقاوم إعجابها به. تحتمي دائمًا بالخلاف الذي كانت تفتعله، حين تضبط قلبها يدق لوجودها بالقرب منه.هل حقًا كانت تفتعل الخلافات معه ، حتى تهرب من إحساسها به ؟!

ستقول لنفسها يومًا حين تشتد بها الوحشة، وتتوق للحظة وحيدة تبوح له بحبها، ما الذي كان سيضيرني لو سمحت له بأن يقف أمامي كما تتمني كل بنت، ويقول لي: أحبك .

فقط يقولها ببساطة ويسر، ساعتها ربما لتغيرت حياة كليهما. ماذا كان سيحدث إن هيأت الظروف التي تجعله يقف أمامها، ويبوح لها بحبه ؟!

أصبحت في صراع دائم مع نفسها.لا ترغب في الاعتراف بحبه ، وهو دائم التحدي لها، شديد الثقة بنفسه. تواصل افتعال كل ما يُبعدها عنه ويُكرَّهها فيه. هل حقا كانت تكره وجودها بجانبه ؟ ذلك الوجود الذي فرضته عليها الأيام .بعد الثانوية التحق بنفس الجامعة التي التحقت بها، بل نفس القسم، ولمزيد من الصدف العجيبة كان معها في نفس السكشن. كانت تجده أيضًا في قصر الثقافة . يجلس معها ويناقشها بنديةٍ وتحدٍ في قضايا ربما ما كانت تخطر على بالهما لو أنهما صارا يومًا حبيبين .

حياتها معه بهذا الشكل كانت تخضع للصدف، أم هو الذي كان دائم البحث عما يقربه منها ؟ هل اختياراته التي أوجدته بجانبها طوال الوقت كانت خاضعة للصدف ؟!

ظلَّت الحياة تجمعهما، وظلا يهربان من الاعتراف بالحب. هل أحبها يومًا ؟! هذا ما لم تعرفه أبدًا.

تلتقي به بعد عشرة أعوام من تخرجهما، ساعتها سينسى كل حماقات وتحديات الشباب، ويقول لها : أحبُّك، ولكن من أسف سيكون الوقت قد تأخّر كثيرًا .

نجوى تجلس معها في الفصل في وقت الفسحة. تحكي لها عن سائق السيارة التي تركب معه. يتعمد ملامستها حين يمد ذراعه؛ ليفتح لها بالباب. تغضب دائمًا، وتطالبه بإصلاح الباب،فلن تركب معه مرة ثانية، وفي كل يوم تعود، لتركب معه. تجده واقفًا بجانب سيارته. لا يردُّ على غضب الزبائن الذين يحتجون، ويعلنون أنهم تأخروا على العمل في المدينة . حين يلمحها قادمة من بعيد، يبتسم ابتسامة النصر. يفتح لها الباب، وتجلس بجانبه.

حين تخرج السيارة من الطريق الترابي، وتقترب من الإسفلت ،يدقُّ قلبها. مبني المدرسة الصغير يظهر من بعيد، ويد السائق التي تنتظرها، تقترب لتفتح لها الباب.

سلوى تعجب من إصرارها على الركوب معه، وهي تبرر إصرارها بأنها لا تجد سيارة أخرى تخرج في هذا الوقت المبكر. اضطرب قلبها، حين أصرَّت سلوى على أنها تتعمد الجلوس بجانبه ، خجلت نجوى، و حاولت تغيير الكلام، فسألتها عن اسم قريتها ،ردَّت سلوى بفخرٍ ظاهرٍ :

- اسمو العروس

لم تنتبه لوجوده، حين سمعهما يقتربان من باب الفصل مال بنصف جسده الأعلى إلي الوراء ، فاختفي في ظل المقعد الأمامي . جلست البنتان تتحدثان، ولم تدركا وجوده. حين ذكرت اسم بلدها بكل هذا الفخر، رفع رأسه، وأقام نصف جسده الأعلى، وقال بسخريةٍ وتحدٍ :

- يعني إيه اسمو العروس .؟!

التفتت البنتان إليه مذعورتين.أغلق الكتاب بهدوء، كمن لم يسمع شيئًا من حوارهما السابق. نظرت إليه في تحدٍ وغيظٍ، وقالت متفاخرة أنَّها سُمّيت علي اسم بطل الحكايات الشعبية أحمد ابن عروس. نظر إليها نظرة محايدةً دون تعليق، فهو لم يكن يعلم عن بطلها الذي تتفاخر به شيئًا. ،ولكنه أحسَّ أنه أحرجها أمام زميلتها .خرج من الفصل دون تعليق. كلتاهما نسيت وجود الأخرى.

نجوى تاهت في مساحةٍ ما بين الرعب الذي داخلها حين عرفت أنه سمع حديثها، والدهشة التي تملكتها حين واجهتها سلوى بأنَّها تتعمد الركوب مع هذا الرجل الذي يتفنن في إشعال النار في جسدها.

سلوى اغتاظت منه ، هو الذي يتعمد إغاظتها ، لكنها ابتسمت حين لمحت نظرة الألم والاعتذار،لأنه سبب لها الحرج أمام زميلتها؛ فخرج دون تعليق. لم تفهم صمته المفاجئ علي أنها أفحمته حين تفاخرت ببطلها الشعبي ، بل فهمت أنه تضايق من أجلها. صمت، وخرج. هو لا يعلن هزيمته بسهولة. شعر بالضيق لأنه أحرجها .

6

ماذا تفعل امرأة استطاعت الهرب من فخاخ كثيرة وضعت للروح؛ لتجد نفسها، وقد تعدَّت التاسعة والثلاثين دون زواج؟!

هدها انتظار رجل لا يأتي. كيف ترفض الفرصة الوحيدة؛ لتدخل إلى الحياة،التي ظلَّت تتفرج عليها من الخارج. كثيرة هي المرات التي لاحقت بعيونها الصغار، وهم يتقافزون ويحاولون الإفلات من أيدي أمهاتهم. تمنت في كل مرة ترى هؤلاء الصغار أن تكون يدها هي التي تقبض على هذه الأكف الصغيرة المتمردة. قليلة هي المرات التي تسمَّعت للجارات،وارتعشت لتأوهاتهن، حين يختلين بأزواجهن. ماذا تفعل، وهذه حالها إلا أن تتمسك بفرصتها في حياة كانت مستبعدة من ذهنها تماما؟!

ماذا تفعل وهي لا تقدر على إخفاء الشمس بإصبعها؟! كانت زخات المطر من خلف الزجاج تجرح روحها على غير العادة. طالما شعرت بسعادة غامرة وهي تقف تحت المطر. تلف حول نفسها وتضحك.هو يشدها من يدها خوفًا عليها.

الآن لو جربت أن تنزل إلى للشارع،وتقف تحت المطر،لن تجده هناك يخاف عليها ويشدها.

الآن تجلس وحيدة تراقب المطر المتساقط وتبتسم ابتسامة باهتة. يتخيل من يراها على هذا الوضع أنها تنتظر من غاب عنها طويلاً . تقوم فجأة إلى دولاب ملابسها تخرج منه ألبومًا للصور. تقلب فيه. تبتسم أحيانًا، وتتوه في مساحة من الذاكرة التي أصبحت حية ومؤلمة.

يدق جرس الهاتف. تقوم إليه؛ فيأتيها صوت أخيها. يسألها عن رأيها في الرجل الذي تقدم

لخطبتها. ترد عليه يائسة، وتعده بالتفكير في الأمر.تضع السماعة، وتعود إلى مكانها. تجلس في استكانة، وتنسى أمر العريس، والأخوة المتلهفين على تزويجها، حتى يتخلصوا من قلقهم الدائم عليها.

ذلك القلق لا يتذكرونه إلا حين يأتيهم صوتها تسأل عنهم وعن أبنائهم. دائما تهرب من تعليقات زوجاتهم السخيفة عن الزواج والعمر الذي يمضي . تسمعها ولا ترد.تقرر بينها وبين نفسها ألا تذهب إليهم وألا تزورهم .لا تقدر، فتجد نفسها بين الحين والآخر تتصل بهم، أو تذهب؛ لتطمئن على الأبناء الذين تحبهم رغم كل شيء.

منال امرأة تبدو قوية ومتماسكة .لا يعرفون وحدتها القاتلة التي تمتص روحها،منذ موت والديها، منذ رحيلهما نصَّب كل فرد في العائلة من نفسه وليًا عليها، حتى هؤلاء الذين يصغرونها سنًا.أصبح الجميع يحاول تصريف حياتها نيابة عنها.

ولم تسلم من لسان زوجاتهم. لم يدخرن وسعًا في معايرتها بعدم زواجها حتى الآن. دائمًا تنظر إليهم بلا مبالاة، ولا ترد . صمتها يزيدهن غيظًا. لا تعرف كيف تبرر للجميع امتناعها عن الزواج حتى الآن .كل ما تستطيع قوله عن شخص ما تقدم للزواج ووافق عليه أحد أخوتها: أنه غير مناسب،والكل يثور عليها ويتهمها بالتفريط في حياتها، وأن فرصها لابد ستقل في المرات القادمة .تسمع وتكتفي بقولها النصيب عارف صاحبه. ولما يمل منها الجميع، يتركونها لحالها، ولكن حين يأتي أحدهم بفرصة جديدة يقول من جديدة :

ـ عريس لقطة.

ويبدأ الضغط من جديد. أحيانا تتمنى أن تثور عليهم، ولكنها تكتفي بهزِّ رأسها فقط.

اليوم وهي جالسة خلف الزجاج تتابع زخات المطر، وتتذكر تفاصيل حبها القديم، راحت تتعجب من نفسها. كيف انتظرته كل هذه السنين ؟ ما الذي أعطاها هذه الثقة المطلقة في رجوعه . لم تسمع عنه كلمة واحدة منذ أن قابلها آخر مرة وأخبرها أنه لا يقدر على تنفيذ طلبات أخوتها المبالغ فيها. ورغم اعتراض أبيها على هذه الطلبات إلا إنها لم تقدر أن تقف في وجوههم.

أخبرها أنه سيسافر؛ ليستطيع أن يبني لهما بيتًا.من يومها لم تسمع عنه شيئًا، ومن يومها وهي تنتظره .

زميلاتها في المدرسة يتعجبن، كيف تحيا حياتها هكذا دون عقد.دون الإحساس بأي نقص. تتحدث في الموضوع دون أن تشعر بأي غضاضة.تضحك من نفسها، وهي تحدثهن عن عدم القدرة على رفض وصاية أخوتها. وتقلد لصديقاتها زوجات أخوتها، وهن يتعمدن معايرتها، والغيظ الذي يتملك قلوبهن حين تتجاهل التعليقات، ولا ترد عليها .

مها الحسيني دائمة العطف عليها، والقلق أيضًا، ولكن منال تخبرها أنها لا ينقصها من يقلق عليها.يكفيها أخوتها الذين يتخيلون أن الدنيا ستهدم ما لم تتزوج .لا يقتنعون أبدًا أنها تعيش سعيدة ومستقرة أكثر منهم جميعًا، ولا داعي لقلقهم الدائم عليها .

7

ما الذي أخذ من روحها أكثر تلك البنت المعجبانية ، التي كانت تجيد الاعتناء بروحها وتقويتها في مواجهة الموات؟!

موت كريم، وتخليه عنها، أم موت أمها وتركها في يد زوجة أب قاسية ،وزوج لا يعرف سوى الغضب ؟!

سقطت متشنجة لما أخبرتها أمها بموته.لم تفق إلا في المستشفي .الطبيب الشاب يأمر الممرضة أن تعلق لها المحلول،وتبعد عن يديها أي آلة حادة قد تستخدمها في قتل نفسها.

ارتعش قلب الأم تماما وهي تري ابنتها التي أنفقت سنوات عمرها في تدليلها وتربيتها، تكاد تضيع من بين يديها. من خلال دموعها قالت للطبيب :

ـ أرجوك يا دكتور عروق إيديها معدتش مستحملة الإبر .ردّت الممرضة :

ـ يا مدام عروقها بتفر، حاطين لها(كانون)علشان الإبر .جسد وفاء يرتعش. كادت أن تقطع لسانها.سارع بوضع فوطة بين فكيها. أعطاها حقنة المخدر؛ فنامت.في اليوم التالي حدَّثها برقة عن موت كريم؛ تجاهلته تمامًا، وضحكت منه حين أخبرها بموته قالت له :

ـ يا دكتور أنت متعرفش كريم . الموت ميقدرش عليه.

كانت عيون وفاء تسح حين لمحت أمها ، انتفضت وكادت أن توقع الحامل المعلق عليه زجاجة المحلول وقالت لأمها :

ـ شوفي يا ماما الدكتور بيقول إيه ـ اتكلمي يا ماما صحيح كريم مات ؟

- .....

ـ بينا عهد حتي الموت ميقدرشي عليه .

يا لقسوة الأيام عليك يا وفاء ! لم تكن تعرف أن أمها ستموت بعد خروجها من المستشفي بشهو، ولم تكن تعرف أن الدائرة تكتمل ويتمّ إغلاقها جيدا حول روحها. لم تكن تعرف أن الأحبولة تنتظر فقط عينيها المعصوبتين. تزوَّج أبوها من امرأة، عرفت كيف تقهر روحها.

لم تُعطها الفرصة؛ لتنجو من الفخ الذي أحكمت نصبه حولها. ولتكتمل كل عناصر التراجيديا حول روح تواقة للبراح، زوَّجتها المرأة من أخيها. لم تكن تطيق الجلوس معه خمس دقائق دون أن تلعن اليوم الذي رأته فيه. وقف الأب صامتًا، وعيون ابنته تسح في ليلة زواجها. فقط همس لها بضعف، لم تعرفه فيه قبلاً:- زوجك راجل طيب يا وفاء اصبري، واستكان تمامًا لزوجته وأوامرها . عادت من العمل عازمة علي مواجهة رجلها الذي تفنن في سحقها. وجدته يقرأ عن المباراة التي خسرها فريقه بالأمس. ألقي بالجريدة في عصبية، وأخبرها أن الصبيين يزعجانه بطلباتهما وهما يذاكران، ثم لعن اليوم الذي فكر فيه أن يتزوجها.نظرت إليه نظرة حيادية تمامًا، ولم تعلق. وضعت ما تحمله في المطبخ، وعادت للصغيرة الباكية .اغتاظ منها واتهمها باللامبالاة. تركته يكمل شتائمه.دخلت؛ لتعدَّ الطعام لصغارها .تساءلت لماذا لا تنهي الحياة معه. ربما يكون هذا أفضل لأبنائها؛حتى تريحهم من قسوته. استراحت لهذا الخاطر وقررت أن تأخذ هذه الخطوة في أول مرة تواتيها الشجاعة وتثور

8

كانت سلوى جالسة في المترو. ترقب الجالسين . تتابع الصخب الذي يحدثه طفل صغير أفلت من يد والدته. الأم تداري الإحراج بالابتسامة المتكلفة .لفت نظرها امرأة جالسة قبالتها تبص للجالسين بعيون عسلية واسعة. شعرت بسعادة وهي تتوه في نظراتها الفوضوية الجريئة. نظرات امرأة تود أن تضم العالم إلى صدرها .انتبهت إلى نظرات سلوى الطويلة في عيونها، فرفعت حاجبيها دهشة و حيرة. لاحظت سلوى حركة حاجبيها، فلم تحوِّل نظراتها عنها . حللت دهشتها من نظرات امرأة إليها. طبعا تعودت على نظرات الإعجاب من الرجال أما نظرات امرأة !!

. يا ترى حتنزل فين ؟ هتكمل لحلوان ؟

أسئلة ضبطت نفسها تفكر فيها وتشغلها.دارت في رأسها أفكار كثيرة عن كيفية بدء حوار معها. تعجبت من الرجال الذين يُجيدون التعرف على النساء بسهولة تدهشها. شعرت تلك الجالسة أمامها برغبتها في الحديث قالت :

ـ على فكرة لون الروج بتاعك هايل ولايق على وشك خالص.

ـ بجد شكرا

ـ هوه ماركته إيه ؟

- إيفون

ـ نمرة 45.. مش كده

ـ فعلا .. عرفتى إزاى ؟

ـ يعنى .. بيقولوا إنها شركة يهودية

ـ مش معقول ده لو كده هرمي الميكب بتاعي كله

ـ ليه يعني ؟!

ـ طبعا مش يهودي؟

ربما لم تجد كلاما أمام حماسها، وقوة اليقين الذى تتحدث به . صمتت لحظة ، سألتها إلي أين هي ذاهبة ؟، وأين تعمل ؟ وللمصادفة الغريبة كانت ذاهبة إلي نفس المدرسة التي تعمل فيها سلوى، مدرسة علوم وذاهبة اليوم لاستلام العمل. تحدثتا بعفوية و حميمية مدهشة .ذابت بينهما المسافات .لم تدخل غادة أي فصول؛ فجدول حصصها غير جاهز كما قال سكرتير المدرسة. سلوى لم يكن لديها سوي حصة واحدة في فصول الثانوي. بعد انتهاء الحصة عادت بسرعة إلى غادة. من جديد تدهشها .. بنت الإيه ! تعرفت على باقي الزملاء بسهولة. كانت تتكلم معهم وكأنها تعرفهم طول عمرها.

هى أيضا تكلمها بتلقائية مقصودة ، ربما لتوحى للآخرين بأنهما معرفة قديمة، أو على الأقل تعرفها قبلهم .

في اليوم التالي كانت سلوى واقفة في الفصل، تشرح للتلاميذ قصيدة البحترى .قالت لهم إن البحترى شبه الربيع بفتى جميل الوجه يضحك ويتمختر فى مشيته ، قطعت كلامها لحظة ، فكرت أن البحترى شبه الربيع بفتى مخنث، يعنى ممكن البحترى يكون! ضحكت لنفسها من أفكارها الشريرة، ولاحظ التلاميذ ضحكتها فصاحوا:

بتضحكى ليه يا مس ؟

رأتها تقف بجوار السور.الهواء يتخلل بلوزتها الحريرية . تمد يدها؛ لتزيح خصلات من شعرها غافلتها،و انفلتت من تحت الإيشارب الذي تضعه على رأسها. غابت معها في لحظتها ،ونسيت التلاميذ الذين مازالوا ينتظرون أن تجيب على سؤالهم . هي لا تعرف أين توقفت وعيون الصغار تخترقها . أنقذها جرس الحصة الثالثة من صمتها الذي طال هذه المرة . تضع الكتاب وتقول ضاحكة :

ـ نكمّل بكره يا حبايبي .

تذهب إليها. تضع يدها على كتفها، فلا تنتبه . تجدها تطيل النظر إلى الطيور التي تسكن شجرة الليمون في المنزل المجاور للمدرسة .تقف بجانبها طويلاً، ولا تشعر بها. تلكزها في كتفها وتقول :

ـ إيه رحتي فين ؟

ـ تعرفي كان نفسي أكون طائر .

ـ طائر ؟. دايما الواحد يسمع كان نفسي أكون مهندسة ، دكتورة ، لكن طائر جديدة دي .

ـ بجد نفسي أطير ، وأفضل أطير، وأطير .

ـ فكرتيني بالممثلة اللي كانت مع توم هانكس في فيلم (فورست جامب)

ـ أيوه شفته كتير. بحب الفيلم ده قوي .

ـ برضه كان نفسها تكون طائر .

ـ إيه أحسن منظر عجبك و أثر فيكي ؟ حصان بيجري ولا طائر بيطير ؟

ـ تعرفي أحسن منظر أثر فيا وشايلاه في الذاكرة ، النظرة اللي بتترسم على وش الغزالة لما تكون بترعى في العشب. تشعر بالخطر تلاقيها رفعت ودانها وبدأت تترقب الخطر وتستعد للانطلاق .

ـ انطلاق ! أعتقد إنه هروب . أنا عرفت دلوقتي انت بتحبي (فورست جامب) ليه . فاكرة لما البطلة في كل موقف تقول : اجري يا فورست ؟

ـ على فكرة جري (فور ست) في الفيلم مكنش هروب على قد ما كان رغبة في الوصول لبكره. أنا دايمًا بحب اليوم الجاي، لدرجة إني بقطع ورقة النتيجة و أجيب بكرة قبل ما ييجي .

ـ ده معناه إنك مش راضية عن الحاضر .

ـ ده صحيح، بستني اليوم الجاي يمكن يكون أحلي من النهارده.

تذكرت سلوى حديثًا دار بينها وبين ابتسام صديقتها في الجامعة عن ذكريات الطفولة ومحاولة استرجاع هذه السعادات الصغيرة المنفلتة من عمرنا الفائت؛ لتساعدنا على تقبل الحاضر، و التعايش معه .

في هذه اللحظة كانت صورة صديقتها القديمة وما بينهما من ذكريات تحتل فكرها.أصبحت لحظات ماضيها في بؤرة الشعور وغادة ـ الواقفة بجانبها ترقب طيورها التي تطير، ثم تحطُّ على الشجرة مرة ثانية ـ في هامش الشعور. تأكد لها الآن سبب انجذابها إلى غادة .هي تُشبه صديقتها ابتسام في كل شيء، وتختلف عنها في كل شيء.غادة المنطلقة دائمًا، الغامضة بعض الشيء،التي تحلم أن تكون طائرًا محلقًا في سماوات بعيدة .

غابت كل منهما في مساحة الذاكرة التي تفجرت. أصبحت الذكريات لغة بديلة للصمت. التفتت غادة إلى سلوى وقالت لها:

ـ كان نفسي أسجل كل كلمة قلناها.

ـ ليه ؟!

ـ بحب بواكير الأشياء.

تأسرها الاكتشافات الومضية الأولى، فمنظر ورقة البرعم الصغيرة لزهرة أجمل بكثير من باقة ورد كاملة. لا تشاركها سلوى هذا الرأي ، فالوردة المتفتحة أجمل ولها عبيرها.

تنظر غادة إلى الفراغ، ولا تنتبه لصديقتها التي ما تزال تؤكد على عمق العلاقات حين يصقلها الزمن . قالت لها :

ـ سلوى أنا عارفة ومتأكدة أول ما صداقتنا تقوى زي ما بتقولي هتنتهي .

ـ ليه بتقولي كده ؟

ـ عمري في حياتي ما اكتملت فيها حاجة واحدة حلوة . كل حياتي انصاص ، انصاص ، كل حاجة في حياتي حلوة تبدأ من النص أو تنتهي عند النص .

ـ يا ستي أنا مش من عادتي إني أفرط في حاجة حلوة ، يعني اطمني مش هنفترق ولا نسيب بعض .

ـ تعرفي إسلام ابني طالع زيّ ، دايما خايف من نهايات الحاجات.

ـ إحنا بنتشابه حتى في السعادات التي لم تكتمل في حياتنا .

9

ماجدة عز الدين لا يعرف الواحد حين يتعامل معها إن كانت طيبة أم شريرة .ورغم أنه يقف متحيرًا أمام كل تصرفاتها إلا أنه في النهاية لا يقدر على أخذ موقف عدائي تجاهها. ربما يعلن بثقة زائدة رأيه، ويقول بعد أن يزمَّ شفتيه ويعقد حاجبيه دهشة :

ـ دي ست تحيّر. مش عارف والله!

هي واحدة من شلة مها الحسيني، لكنها تختلف عنها في كل شيء . مها رغم المزاح والسخرية اللذين تتعامل بهما مع المواقف إلا إنها في وقت الجدِّ تقف بصلابةٍ تحسد عليها. لم

تسمح لرجل بأن يتخطَّى حدوده معها.الكل يتجنب رد فعلها غير المتوقع، أما ماجدة فهي قادرة على شغل حيز يبحث عنه الرجال دائمًا .

الناظر إليها يستقر في وعيه إنها لا تفكر إلا فيه . لا ترى رجلاً غيره. دون أن تصرح بذلك . فقط تُطيل النظر إلى عينيه، ثم ترميه بنظرةٍ أخيرةٍ نعسانةٍ تُحمِّلها كل الدلال المطلوب. ترخي رموشها وتمشي. البعض من الرجال يظل متحيرًا لا يفكر إلا في نظرة الدلال تلك التي مست قلبه . منذ أن جاءت إلي المدرسة لم تجد من يتحملها إلا مها الحسيني التي تصفها حين تعترض منال أو سلوى:

ـ دي غلبانة وولية زينا.

هي تعرف تمامًا ما يريده الرجال. ولا يعنيها نظرة النساء إليها .تدرك أن الرجال يعاملون المرأة الضعيفة بودٍ. يُتيحون لها الحماية اللازمة. في وجود أي رجل لا تبدي قوتها أو ذكاءها، بل تدَّعي البراءة حد الغباء.تعرف أن المرأة الذكية أو القوية لا يتعاطف معها أحد.

حين دخلت في صراع مع منال في بداية العام حول الفصول التي ترغب في تدريسها.جاءت أمام المدرس الأول ووقفت مستكينة وبريئة، وقالت بصوتٍ هامسٍ:

ـ علشان خاطرك يا أستاذ سمير.

ثم أضافت بدلال

ـ مقدرش أرد طلب لك.

ورغم أن الأستاذ سمير يعرف منال منذ سنوات بعيدة، ويعرف أنها لا تحب الظلم إلا أنه قد تمكن منه لحظ ليلى ـ كما يقولون ـ أو حتي لحظ ماجدة عز الدين. أصر على أن يعطيها الفصول التي تريدها.وقفت منال ساهمة. نظرت إليهم نظرة عتاب وانسحبت من صراع لا يليق بها، قالت سلوى في غضب :

ـ من فضلك يا أستاذ سمير بلاش تستغلوا حياء منال ، و تتعدوا الأصول .

صمت الجميع.أدركوا مدى غضبها، فحاولت مها أنْ تُلطِّف الجوَّ بالمزاح. سخرت من ماجدة وهي تدرك أنها لن تغضب منها ، مساحة الود بينهما تسمح بذلك :

ـ إيه يا ستي ماجدة ، كل ده علشان تكملي العمارة ، ارحمي ولاد الناس مصيتي دمهم .

ترد ماجدة في سهوكة ودلع :

ـ أنا ؟! حرام عليك يا مها! هو أنا من دول برضو.

تنسحب سلوى ومنال في غضب .تنظر إليهما مها في حزن وتقول لماجدة :

ـ بلاش الأنانية دي. منال ملهاش في الدروس الخصوصية ، ولكن دول ولادها، معاها من سنة أولى، يعني مربياهم على طبعها .

ويصير ما تريد ماجدة. يكفي أن تطلب من المدرس الأول ما تريد؛ فيحقق لها ذلك . تعرف كيف تتقرب من الرجال. لا تُفوِّت مناسبة دون أن تُحضِر فيها طعامًا من المنزل، وتُصرَّ على أن يشاركها الجميع. منذ اليوم الأول للدراسة وهي تؤدي دورها مع البنات. تطيل الجلوس معهن في الفسحة والحصص الاحتياطي،حين يغيب عنها الأساتذة لسبب أو لآخر . تحدثهن في الدين .حين تستمع إليها يكاد يبكيك صوتها من شدة التأثر .

في المناسبات الدينية المختلفة لا تفوّت الفرصة . تسرع إلى الميكرفون في طابور الصباح. يعلو صوتها مجلجلاً، وهي تتحدث عن النبي ونسائه وصحابته. بعد الطابور يقترب منها إيهاب مدرس الرياضيات ويقول لها :

ـ بلاغتك تفوق الجميع يا أستاذة وثقافتك واسعة ، أنت فعلاً مكسب لينا .

تنظر إليه نظرة يملؤها الخجل والدلال.ترخي رموشها وتقول في رومانسية ورقة مبالغ فيهما :

ـ المهم يجعله الله في ميزان حسناتنا.

سلوى لم تكره أحدًا في حياتها مثل كرهها لماجدة،ربما كان يبدو للبعض أن كرهها غير مبرر.تعرف أنها تبطن غير ما تظهر. تثق في حدسها،وأنها لا يُؤمن جانبُها.حدسها فقط يؤكد لها أن ماجدة روحها ليست نقية تمامًا.تلك الهالة من التدين والبراءة مصنوعة تمامًا.كثيرًا ما عاتبتها مها لهذا الموقف من ماجدة،ولكنها ترفض أن تتناقش في الأمر وتعلق بجملة وحيدة :

ـ روحي تخبرني بقسوة قلبها. أشعر بهالة سواد تلف طيفها.

منذ أن جاءت إلى المدرسة، وعلاقتها بغادة متوترة على الدوام.تصفها دائما بأنها سهتانة. تنصحها سلوى أن تتجنبها، فهي قادرة على التأثير في المدير ومن حوله . تضحك غادة دونما اهتمام وتقول لها :

ـ سلوى أنت بيخيل عليك الكهن ده ؟ الكل فاهمها.

لكنها تُصرُّ على أن تتجنبها غادة، فهي تختلف عن انتصار التي تصرح باعتراضها على أي تصرفٍ لا يعجبها. قد تقابل غادة حين تراها مرتدية ملابس تظهر جمالها وتقول لها:

ـ صراحة مشفتش في جمالك.

وبعد أن تنصرف تقول لمن يجلس بجانبها:

ـ زي ما تكون رايحة كازينو مش مدرسة.

حين تجد اهتمام أحد المدرسين بأي مدرسة غيرها.تأكل النار قلبها ،وتدور تُحدِّث الكل عن تصرفاتها غير المسئولة والتي لا تليق بالتدريس في مدرسة محترمة.

10

أن تكون جارتك لعامين ونصف، ولا تعرفها إلا حين يأتيك صوتها ،وهي ترد على الأسطي رضا بحزم مرة ،وبدلال مرة أخرى، ساعتها يمكن لك أن تتعجب كيف لم تتعرف عليها، وهي تطلب منك أمرًا وأنت لفرط حيائك لا تقدر على رفض طلبها. بعدها يتكشف لك كل شيء . بعدها تندم أيضًا على مساعدتها.

عبير أنور مدرسة التدبير المنزلي . شاءت إرادة الله عز وجل أن تسكن جوار سلوى .وشاءت إرادته أيضًا أن يُكلل سعيها في نقلها إلى مدرستها بالنجاح. كان قد مضي ما يقرب من العامين على سكن عبير بجوارها. دخلت عليها- على غير عادتها - منذ اختارت الشقة المواجهة لها؛ لتسكن فيها.

- لو سمحتي يا أبله سلوى عاوزاكي في موضوع.

- اتفضلي .

- أنا آسفة إن كنت عطلتك عن حاجة.

- لا أبدًا.

ثم رمت بعيونها إلى الحجرة التي تجلس فيها صغيرتها تعمل واجب المدرسة،وأمرتها بعمل الشاي..

- أنا عاوزة أتنقل مدرستك، أنا كتبت طلب،والبركة فيك تزكيني عند المدير.

- إذا كان في إيدي حاجة إن شاء الله هعملها.

ولقد شاءت إرادة الله أن تكلل جهودها - التي أصبحت تندم عليها أشد الندم - بالنجاح، وأصبحت عبير هي مدرسة التدبير المنزلي في مدرستها. منذ اليوم الأول في العام الدراسي الجديد عرفتها للمرة الأولى في حياتها. كانت العلاقة بينهما لا تتعدى المجاملات العادية بين السكان في المناسبات.إلا أن شخصيتها مرت مرور الكرام . كأنها لم تعرفها قبلاً. اتفقت سلوى مع رضا السائق الذي يقلها هي وابنتها منذ سنوات أن تركب عبير معهم ، وفي أول يوم من أيام الدراسة جاء رضا في موعده. أوقف السيارة أمام الباب، ثم نزل، و فتح الباب الأمامي وقال .

- اتفضلي يا أستاذة سلوى مكانك أنت ورنا قدام .

ابتسمت سلوى، وهي تُدخل قدمها في العربة .حين سمعت صوت عبير تقول للأسطي رضا بصوت عال :

- وإحنا بقي ولاد البطة السودة يا أسطي ولا إيه.؟

- أبدا يا أبلة ، من سنين والأستاذة بتركب قدام.

- وإن شاء الله أنت بتركب كام عيل في الصالون.

ـ سبع تلاميذ مع حضرتك.

لم يلفت انتباهها هذا الحوار.هالها تعاملها مع الأطفال الصغار في العربة، لكن ما جعلها تغض الطرف ـ كما يقولون ـ عن ذلك التعامل هو رأي الأسطي رضا والذي قاله بفخر و جدية:

ـ أحسنتي يا أستاذة، ثم أخذ نفسًا أطول من السيجارة، وراح يُخرجه في حماس،ظهر أثره في خلجات وجهه، وهو يحاول ضبط المرآة ؛لكي يستطيع أن يشاهد وجهها،وهو يحدثها:

ـ الأبلة باين عليها بتعرف تتعامل كويس مع العيال اللبط.

ـ والرجالة اللبط كمان ياأسطي.

كانت الجملة كافية؛ لتبين لسلوى قدر الكارثة التي سعت إليها بكافة الطرق . لم تستمع إلي رأي زوجها الذي حذرها تمامًا من أخلاقها.

ـ ماشي أنا لعلمك تلميذ شاطر ،وبستوعب بسرعة. تصدقي وتآمني بالله .

ـ ونعم بالله.

كانت العربة قد توقفت لمرور قطار البضاعة الذي يقسم الطريق عند مساكن حلوان. أدار وجهه إلى عبير ، ليواجهها بعيدًا عن المرآة للمرة الأولى .سكت لحظات. فكرت سلوى خلالها في وضعها مع زميلتها، والسائق الذي يطيل النظر في وله إليها . استمعت ساهمة إلى حديثه المتدفق، وهو يعلن إعجابه بحزم عبير مع الصغار، الذين حاول كثيرًا خلال السنوات الفائتة أن يستريح من ضجيجهم، ولم يساعده علي تحملهم سوى مُسَكِّن (المجرانين) الذي يلازم جيبه طوال دورة المدارس.

كان صوته صوت عاشق وقع في الحب على حين غرة. لم تمض إلا أيام معدودة ، حتى اكتسبت سلوى لقب ـ جلابة الخير ـ من كل الزميلات اللائي كنا يرين في عبير امرأة (فالجر) حسب تعبير مدام رحاب مدرسة الفرنساوي، حتى الزملاء أيضًا رأوا فيها مُدرّسة من شارع محمد على. كان لظهور عبير في مدرسة النهضة التجريبية وقع الكارثة . شعر به الجميع بعد أول شجار لها مع المدرس الذي ينظم الجدول .لقد ظهرت على حقيقتها التي غابت عن سلوى طوال سنوات. كانت بالفعل وريثة أمها الست فايقة التي استطاعت ترويض الزوج السابع والأخير الأسطي أنور، وأنجبت له عبير فقط، وكانت لها سمعة تعدت حدود منطقة عزبة الوالدة ببضع مئات من الكيلومترات من الجهات الأربعة.

كان المطر يزداد كثافة، وهي تلف الكوفية الصوف حول رقبتها.تخفي يديها في البالطو الأسود الطويل. لمحتها سلوى من بعيد لم تصدق عينيها.هي سمية لا أحد غيرها.تقف أمام محل الأنتيكات في ميدان طلعت حرب.وقفت سلوى ترقبها من خلف الزجاج، و تدفئ يدها في ذراع زوجها. تدخل المحل تحادث البائع.تنتقي أيقونة خزفية. دفعت النقود في غير اهتمام، وخرجت من المحل. التفتت إلي سلوى شاردة ولم تتعرف عليها. لم تلحظ ابتسامتها.هتفت سلوى باسمها. نظرت إليها طويلاً قبل أن تمد ذراعيها هاتفة :ـ سلوى أخيرًا بعد كل السنين دي.قدمت إليها زوجها. مدت سمية يدها، وابتسامة باهتة تعلو وجهها، وقالت لا بـأس. سلَّم عليها الزوج بحرارة تليق بأصدقاء قدامى، وأخبرها أنه يعرفها جيدًا من خلال حكايات سلوى عنها؛ فقالت : ـ كنا ثلاثة، ولم تكمل جملتها. أخرجت الأيقونة التي اشترتها توًا من حقيبة يدها.عرضتها عليهما. قالت سلوى :ـ متغيرتيش يا سمية، لو فتحت شنطة إيدك هلاقي المصحف الصغير، وتمثال العدرا اللي اشتريناه من المولد في أسيوط .ـ لسة فاكرة ؟! بتشوفي سهير يا سلوى ؟! من بعد الدكتور مسمعتش عنها.كأن سهمًا اخترق قلب سلوى.تاهت عيناها وسط العربات المسرعة، ولم ترد. لم تنتبه لها، وهي تحكي عن اليوم الذي ذهبن فيه إلى تونة الجبل. لم تعرف سلوى سبب تذكر سمية لهذا اليوم بالذات، رغم تعدد ذكرياتهن معًا. كانت الفتيات الثلاث عائدات من المدينة الجامعية كل إلى منزلها. في الطريق ركبت معهن سائحة أمريكية طلبت من السائق أن يذهب بها إلى تونة الجبل.استأذن من الركاب أن ينزلوا؛ ليركبوا سيارة أخرى، حتى يفوز هو بالجنيهات الكثيرة التي لا بد سيأخذها من السائحة. وافق الجميع ما عدا سمية التي رأتها فرصة لرؤية تونة الجبل.أصرَّت على اصطحاب صديقاتها، ولم تلق بالاً لخوف سهير من والدها، إن هي تأخَّرت عن موعد وصولها المتفق عليه من المدينة الجامعية. ذهبت الفتيات الثلاث مع السائحة التي كانت تجيد العربية؛ فهي تُعد رسالة ماجستير في الجامعة الأمريكية عن اللهجات العامية، وعلاقتها باللغة الفصحى في مصر والأردن وسورية. في الطريق بدأت الفتيات يتحدثن عن الآثار الفرعونية .حدثتهن سمية عن الأميرة الفرعونية التي ضحَّت بحياتها من أجل حبها لفلاح، وكيف غرقت في النيل بعد غرق حبيبها ! لما وصلن. وقف الجميع في خشوع أمام تمثال المرأة التي ضحت بحياتها من أجل من تحب. اشترت يومها مفتاح الحياة الفرعوني الذي لم يفارق مفرق نهديها إلى اليوم. دون أن تنتبه مدت يدها وأخرجته.ظلت أصابعها تتحسسه، وهي تتحدث.فجأة قالت بحزم ـ لا بد أن أنصرف الآن. تركتهما دون وداع. أسرعت سلوى تسألها:

ـ سمية هشوفك إزاى!

ـ صدفة .وانفلتت بين الزحام، كأنها امرأة قادمة من عصر الأساطير. وقفت سلوى وزوجها مندهشين. يعتقد من يراهما على هذه الحالة أنهما يشكان في رؤيتها هل رأوها أم لا؟! .فوق سريرها في المدينة الجامعية كانت تُعلّق صورة، لشجرة عارية تمامًا من الأوراق، ونتف الثلج تتساقط عليها. تكاد تغطيها . دائما ما علقت سلوى أن هذه الشجرة تشعرها بالوحدة والحزن .كانت تصر على الاحتفاظ بها.تقول في رومانسية بالغة أعشق الشتاء، فهو أكثر دفئًا و إنسانية، ثم تصمت .أخبرتها سلوى أن هذه الشجرة صورة لها، ولروحها . هي تشبه تلك الشجرة الواقفة في وجه الريح دونما ساتر أو حماية .حينما علمت بموت شاعر العامية الذي التقين به في مؤتمر الشعر في الكلية، ظلت تجري باكية، وسلوى وسهير وراءها يخافان عليها. رد فعلها غير منتظر. دوما رأت في سلوى الأم التي لم تكن يوما لها. أمها ابنة باشا من باشوات الصعيد. أحبَّت ابنًا لأحد التجار الكبار .أصرَّت علي الزواج منه .اعترض الأهل، رغم غني الشاب. كان غنيًا، ولكنه فلاح لا يليق بها. لم تتحدث يومًا عن أمها، رغم أنها لا تمل الحديث عن أبيها المثقف الاشتراكي القديم.كان يحفظ الأشعار، ويكتب بعض المقالات الجريئة في جريدة معارضة . ورثت عنه الكتب وحب شعراء القومية العربية كما كان يسميهم ، وحب جمال عبد الناصر. كانت تسكن في ذات الحجرة مع سهير وسلوى في المدينة الجامعية.تُصر بالليل أن تترك سلوى سريرها وتنام بجانبها على السرير. توافق سلوى رغم ضيق السرير، وبالليل تقوم فزعة، وتبكي وحيدة ويائسة. تشعر بها صديقتها، فتلف ذراعها حول جسدها المتشنج، وتنام.في الصباح تتكر بكاءها في الليل.عرفت من الكلية أن هناك حفل تأبين لصابر. أصرَّت على حضوره. ذهبت سلوى وسهير إلى المشرفة، حتى تسمح لهن بالذهاب. رفضت السماح بالتأخير لولا رجاء سلوى التي تعمل لها خاطرًا. حددت لهن ساعة للتأخير، فثارت سمية، ورمتها بنظرة قاسية حمَّلتها كل معاني الكره والاحتقار. غضبت المشرفة،وقررت منعهن من الذهاب.تحت إلحاح سلوى وسهير وافقت. ذهب الثلاثة إلى منزله.هناك أصرَّت على الدخول إلى زوجته التي هدّها الحزن؛ لتواسيها .كانت الزوجة تنظر للبنات في غرابة، لكنها لم تقل شيئًا .فقط مدت يدها، وهزَّت رأسها ردًا على عزاء سهير التي لم تكن قادرة على إخراج صوتها، أما سلوى وسمية لم تقدر واحدة منهما على نطق حرف .جلسن وسط النساء اللاتي كن يختلسن النظر إليهن من وراء مناديلهن البيضاء.يضعنالمناديل على أفواههن، ويدارين ابتسامات خبيثة. حاولت أن تفوز من زوجته، ولو بكلمة. لم تنظر المرأة إليها . وضعت رأسها بين يديها، ونظرت إلى الأرض. بجانبها امرأة أخرى، تسند لها ظهرها.تطلب منها أن تبكي. أن تصرخ؛ لتنفس عن حزنها حتى لا تلحق بالمرحوم .مالت سهير على سمية، وقالت لها لا بد أن ننصرف الآن. عيون النساء تخترق الفتيات. سمية ما تزال متسمرة في مكانها. سألت المرأة التي تلف

ذراعها حول جسد زوجته عن ابنه، فأخبرتها، أنه يلعب مع الصغار في الخارج . تعاود سلوى طلب الانصراف من سمية، ولكنها لا تستجيب. كأنها تستمد قوتها من زوجته، ثم انتفضت واقفة، و اتجهت إلى الباب، دون أن تنظر، أو تسلم على المرأة، التي ما تزال واضعةً رأسها بين يديها. قالت :

- لا بأس .

خرجت تبعتها سلوى وسهير. النساء يتبادلن النظرات، ويتصعبن . اتجهت إلى شارع الحسيني، وأمام النافورة التي تتوسط الميدان قالت جائعة، ثم أسرعت إلى بائع الفلافل. تعجبت البنتان من تصرفاتها. قالت سلوى في أسى وحزن شديدين :

- ومين له نفس للأكل؟!

- أنا نفسي آكل قوي.

كانت هذه عادتها، حين تحزن أو تغضب، تضع كل همها في الأكل. أخرجت ما معها من نقود، وطلبت طلبها المخصوص.جلست تأكل على حافة النافورة. تقضم بنهم، وتقول :

- لا بأس.لا بأس، جملتها الأثيرة التي ترددها في كل موقف تتعرض له. صارت هذه الجملة جزءًا من تكوينها. صارت مهربها من الأسى. البأس داخلها هي التي كتبت الشعر،ومارست الجنون الحياة . حفظت أشعار جاهين محمود درويش. صارت تستشهد بالشعر في كل موقف. قرأت ماركس، وعشقت عبد الناصر. اتهمت صديقاتها بالكلاسيكية تارة، والرجعية العفنة تارة أخرى. لم تغضب منها واحدة مرة.البأس داخلها هي التي ظلت طوال عمرها تبحث، لنفسها عن دور مغاير لأمها الأرستقراطية. أمها التي ترى معظم الناس رعاع . تبحث عن دور مغاير لأمها، التي أحبَّت أباها، وحاربت من أجله عائلتها، ورغم ذلك تتهمه ساعة الغضب، بأنه من العامة والدهماء.العجيب أنها رغم كرهها لأمها إلا أنها ظلَّت تعامل الناس من نفس المنطق؛ فالكل من العامة والدهماء.من يختلف معها تتركه ساخرة وتقول: لا بأس . ساعة أن تزوجت اختارت ابن خالها الأرستقراطي مثل أمها، والذي يعامل أباها وإخوتها بتأفف. سافرت معه إلى النمسا. تركت الشعر والأدب ودور المرأة المناضلة.لم يعد يربطها بهذا العالم إلا أيقونة للعذراء مريم، ومفتاح الحياة الفرعوني الذي يرقد بين نهديها. أنجبت (رودينة) .أكملت صغيرتها عامها الثاني عشر.تقرأ لها سرًا - بعيدًا عن عينى زوجها - أمل دنقل وعبد الصبور. تحكي لها عن فتاة بوجه شمعي، كانت تصنع لنفسها طقوسها الخاصة، دون أن يهمها رأي الآخرين فيها، هم

الذين وصفوها دائما بالجنون، ولم يفهمها أحد يوما إلا شاعر غافلها، ومات، دون أن يقدر على البوح بحبه لها .

12

ربما كانت علياء واعية تماما للعبة التي يمارسها عمها عمر . ربما تواطئت معه؛ حتى تتم اللعبة كما ينبغي.

كل مساء حين يتناولان عشاءهما سويا،يصب لها العصير الطازج ويجلس يحتسي زجاجة البيرة الباردة . يقرب لوحة الشطرنج ويغريها باللعب معه . في البداية تعللت له أنها لا تجيد اللعب ،ولا تفهم كيف يقضي أحدهم ساعات طويلة متأملا لوحة صماء ومعارك متخيلة وملوكا تموت ، لكنه أقنعها بجمال اللعبة وصار طقس البيرة الباردة التي تجاور لوحة الشطرنج قاسمهما في ليل وحدتهما الطويل . بمرور الوقت تباعدت علاقته بأصدقائه. صار يتجاهل رغباتهم الصريحة في عودة أيام المرح كما كانوا يسمونها ، وصار يتجاهل سخريتهم منه لأنه سمح لفتاة بوجه مريمي أن تحتل حياته وتفسدها كما يدعون.

وفي ليلة من ليالي ديسمبر البارد قفزت إلى ذهنه فكرة. قاومها ليالي كثيرة إلا أنه في النهاية نفذها بدقة. حين يبدأ طقس الشطرنج المسائي يقوم إلى المطبخ الذي تفصله عن الصالة الكبيرة فتحة مربعة في الجدار كان يقدم منها الطعام يوما وباب بمرايا زجاجية مصقولة . صنع لها كوبا من الكاكاو الدافئ وأذاب به حبة من حبوبه المنومة. وجلس يلاعبها. بين لحظة وأخرى ينظر في عينيها يبحث عن أثر المنوم ،وحين تضيق ما بين رموشها الطويلة يقوم بها إلى حجرتها . يرقدها في سريرها ويجلس بجانبها حتى يتأكد من نومها . ثم يهمس باسمها علياء ..علياء ،مرات ومرات ، وحين تروح في النوم يبدأ في مداعبة صدرها . وتقبيل شفتيها الورديتين . تعود الحياة للكائن الصغير بين فخذيه . يظل يتمسح بها وحين تتدفق مياهه دافئة على فخذيه يغطيها باللحاف الحريري ويذهب إلى الحمام . يغمس جسده في الماء ، ثم ينام بعدها كطفل صغير لم يرتكب حماقة مع فتاة بوجه مريمي .

لاحظت الفتاة أنها تنام بعد كوب الكاكاو الليلي فقررت أن تتظاهر بشربه . وترى ماذا يحدث . وحين طال انتظار نومها ،قررت أن تتظاهر بالنوم . ساعدها ككل الليالي الفائتة على دخول حجرتها وبدأ طقسه . ظلّت متظاهرة بالنوم ، وحين تدفق ماؤه حارا ودافئا قام إلى حمامه ،

ضمت فخذيها على نيران تتحرك داخلها، وابتسمت ابتسامة خبيثة، واستدعت النوم من ملاكه الذي يحتفظ به هناك في البعيد .

وفي اليوم التالي أمضت ساعاتها تفكر كيف تواصل معه اللعبة دون أن يكتشف أنها شريك مساو له.

13

تجلس سلوى بجانب مها. تضع دفاترها في الدرج، وتستمع لجانب من حديثهن. تتعجب منهن، لا يضيعن فرصة للحديث في الجنس ،بالتصريح مرة وبالتلميح مرات. كل شيء يحمل إيماءات جنسيةً واضحةً، فلو قالت واحدة (هاتي بتاعك) وهي تقصد القلم بالتأكيد ،يضحكن، ويُعلّقن. لو قالت أخرى عن درسٍ إنه طويل، ولم تحدد بشكلٍ واضحٍ إنها تقصد الدرس؛ تغمز إحداهن :

ـ ماهى الحكاية مش بالطول ؟

ويضحكن.لا تفلت منهن جملة لا يحملنها بالإيماءات المناسبة لإيجاد سببٍ للضحك. تسميهن سلوى فرقة الغجر،و قائد الفرقة هي مها الحسيني التي تكون مركزًا لكل لقاء، ومحط اهتمام كل الموجودين، بلباقتها وحضورها .تُجيد الحديث في كل شيء.

إذا سمعتها، وهي تتحدث في الدين لا تصدق أذنيك، وتنسى تمامًا أنها هي من كانت منذ قليل.تتحدث في الجنس والطبيخ.تتهمهن سلوى بالبرود ودائمًا تُعلّق

ـ والله يا بنات إحنا غلابة.

تعلق علياء كعادتها بجمل قصيرة ومبتسرة ثم تنسحب لمساحة صمتها التي تحقق لها الأمان بعيدا عن نظراتهن الفضولية :

ـ دايما بتدوروا على شماعة لخيباتكم وغلبكم.

فترد إحداهن:

ـ بتقولي فيها يا علياء، من الغلب بنبحبح مع بعض، كده وكده يعنى،هنبقى مكتومين بره وجوه

ـ أصلاً يا ماما لو الرجالة شايفة شغلها، بلا نيلة، رجالة بالبق وطول اللسان .

وتعلق ماجدة،بعد أن تُنهي تحضير درسها وتضع علبة الطباشير أعلي الكشكول وتستعد للذهاب للحصة :

ـ الرجالة مظلومة معاكم، حيقدروا على إيه ولا إيه؟

ثم تضحك في غنج وتقول لهن :

ـ يلا سلام عندى حصة نحو، نشوف هنقول إيه لولاد الناس، بلا غُلب ! هو اللي إحنا فيه شوية.

تهتف بسخرية وهى تخرج من الباب : سيبويه يناديني.

تتجه سلوى بالكلام إلى مها التي تكون مشغولة في تلك اللحظة بالتحضير وتزيين الدرس الذي تكتبه في دفترها،لتنال إعجاب كل من يمسك به :

ـ وانتي يا مايسترو إيه اللي مخليكي طول الوقت بتتكلمي في الكلام الفارغ ده ؟

تعتدل مها في جلستها، كمن سيخطب خطبة الجمعة. تعقد ما بين حاجبيها .تضمُّ شفتيها، وتمسك بالقلم بين أطراف أصابعها.تنقر به نقراتٍ متتابعةٍ ومنتظمةٍ، تتيح لها فرصةً كافيةً للتأمل والتفكير ثم تقول:

ـ والله يا أخت سلوى كل ده من الفراخ البيضة اللي قضت على همة الرجالة.هنعمل إيه أصلي البلدي غالي. مع إنه يوكل .

وفي نطق هذه الجملة بالذات تُقلِّد صوت عبد الفتاح القصري، ثم تضيف :

ـ بس هنعمل إيه ؟ أهو الكلام أبو بلاش بيسد خانة.

ـ وإيه دخل همة الرجالة في التهريج والسخرية من خلق الله؟!

ـ تقصدي غادة ؟ دي غلبانة زينا تلاقي البيه الدكتور هوه كمان بيخلص ويجري منها صاروخ.من غير ما يفكر إذا كانت ارتاحت زيه ولا لأ؟ كلهم صنف واحد مايفكروش غير فى نفسيهم وبس. يضحك الجميع من منظرها الجاد،وهي تحلل موقف غادة وتقول إحداهن:

ـ لو الدكتور مروقها كانت خفت شوية من النفخة الكدابة دي.

أنهت سلوى المحادثة بأن أمسكت دفتر تحضير مها. نظرت مليًا في دقة تنظيمه، كأنها تضع بعض روحها،وهي تُزينه بالرسومات على أطرافه. تتوه لحظات،ثم تسألها :

ـ إلا قولي لي يا مها،إيه اللي مش بتعمليه بكل طاقتك ، بحس إنك بتحطي روحك في كل حاجة.

وسط دهشة الزميلات، تضع دفتر التحضير على المكتب، وتخرج دون تعليق. في الطريق إلي الفصل تفكر في حال غادة ومها. مها تضحك وتمزح مع الجميع، حتى مع الرجال .لم ينظر إليها أحد يومًا بشكل لا يليق.ولم يسمع عنها أحدٌ تعليقًا يُسيء إليها . وغادة كل ما تفعله

أنها تُفرغ شحنتها النفسية مثل مها،ولكنها فقط تختص أصدقاءها بالحديث، ومع ذلك فهي محل انتقاد دائم من الجميع .يطمع فيها كل الرجال. ربما لأن مها تُصدِّر خطابًا واحدًا،فلا تختص أحدًا بعينه باهتمامها، ولا بالوقوف معه بعيدًا عن العيون .نالت اللقب الذي يُحصِّنها من الألسنة " ست بميت راجل " كما يصرح الجميع حين يأتي ذكرها. غادة ،وتعاليها غير المقصود على الناس يصنع حجابًا وحاجزًا سميكًا يُبعدها عنهم، ويُعرِّضها لانتقادهم الدائم حتي وإن لم ترتكب فعلاً يُسيء إلى أحدٍ.

14

منذ أول محاضرة درسها للفرقة الرابعة في كلية الآداب رآها تجلس في الصف الأول من مدرج طه حسين ، مالت سهير على زميلتها الجالسة بجانبها، وهمست؛ فقال لها جملته المشهورة:

- (اسكتي يا نفيسة إن شاء الله تعيشي ميت سنة)، ويسكت قليلاً، يرشف بعا من فنجان القهوة ، ويمتص نفس دخان ، ثم يخرجه ببطء ، ويكمل الجملة ، يقول في صوت هادئ، وببطء مقصود..(عانس) .

يرتج المدرج من كثرة الضحك. تضحك معهم من قلبها، ولا تغضب من سخريته.أعجبتها الجملة تمامًا. يصف كل فتاة لا تنصت تمامًا له (نفيسة)، وكل شاب ينشغل عن المحاضرة (متولي). صار من عادته أن يسخر ممن لا ينصت، وصارت كل البنات حريصات علي ألا ينشغلن بشيء، حتى لا يصفهن الأستاذ بنفيسة،فلا تُوجد مَن تُحب أن تحيا عانسًا، حتى لو وعدت أنها ستعيش مائة سنة.

عامل البوفيه يدخل بصينية القهوة. رابع فنجان يشربه خلال نصف ساعة منذ بداية المحاضرة. طفاية السجائر ممتلئة لآخرها .وجه كلامه للقاعة كلها.أخبرهم، أنه يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ولذلك لا يستطيع أن يواصل المحاضرة دون هذا العدد من فناجين القهوة والسجائر .

وقفت تناقش قصيدة الأرض لمحمود درويش ،ينظر إليها باهتمام ظاهر ،يضع يده تحت ذقنه، ويهزُّ رأسه بين الحين والآخر.بعد المحاضرة طلب منها أن تذهب إليه في مكتبه.

ذهبت إليه محتضنة حقيبة أوراقها الجلدية. قرأت عليه بعض شِعْرَها.سحره صوتها المليء بالشجن ،وهي غرقت في عيونه العميقة التي تحتويها وتشعرها بالدفء والحنان . قررت منذ

أول لقاء لهما في مكتبه أن يكون لها. سأتزوج هذا الرجل. سيكون لي وحدي دون غيري هكذا همست لنفسها، ثم قررت أن تكون جزءًا من عالمه . قاوم الأستاذ الذي لم يتخيل أن يحظى هكذا ببساطة ـ هو الذي شاخت روحه ـ بروح تلميذته الوثابة ، قاوم انجذابه إليها ، يكبرها بثلاثين عاما و زواجين فاشلين، لكنها كانت قد خبأته بين جفونها وأغلقت عليه فلم تنفع مقاومته، فقرر الاستسلام لها .صارت كل عالمه ،حتى بعد مولد (رادا) ابنتهما ، شعاع الضوء كما كان يُطلق عليها،ظلت هي اهتمامه الأول. ساعدها في دراستها العليا، حتى حصلت علي الدكتوراه.يأخذها للقاهرة، حتى تشتري كل ما تتمنى . يفرح بها حين يراها تسير أمام الفاترينات. تعلن فرحتها بما تشتري بطريقة طفولية. يشدها من يدها راضيًا. تشترى كل ما تتمنى، وهو يسعد بها ويشجعها. رادا كانت تغار منها.تلقي بنفسها في حضنه. تضحك وتغيظ الصغيرة. تحتضنه أكثر، فتغار البنت، وتبعدها عن حضنه بقسوة لا تليق بفتاة في مثل عمرها .

15

وقفت مها تُعدُّ الطعام لصغارها. زوجها تأخر اليوم كثيرًا.حماتها قلقة. تنادي عليها، وهي منشغلة في ترديد أغنية لا تعرف كلماتها على وجه الدقة.تُركّب على اللحن ما يتراءئ لها من كلمات :

ـ يا مها بتعملي إيه، ومحمد أتأخر النهاردة ليه ؟

ـ مش عارفة يا حماتي، مع إني قبضت الحوافز النهاردة، وجبت لكم حمام عجب، ومحمد لوحده جوز عدالة مقلكيش .

ـ تتك كده وراه لغاية ما الواد قرب ينسلي .

ـ ليه يا حماتي هو أنت اللي خلصتي على المرحوم حماي.

تبتسم العجوز ، وتلمع عيونها. تنسى مها وتروح في مساحة من التذكر. تنتبه إلى مها التي تواصل الحديث المرح كعادتها :

ـ بصراحة حمامك كان يرد الروح بالمستكة وجوزة الطيب ، الراجل مرة كل جوزين زيادة فرفر مات .

ـ الله يخيبك يا مها متفكرنيش بالأيام الحلوة دي ، هو كان فيه زي أكلي .

ـ ليه يا حماتي ، ما أنا شربت منك سر الحلو يا حلو انت يا حلو.

تُرقّص حاجبيها ، وتمسك بوسط العجوز التي تضحك في غنج وتقول لها :

ـ أمال الواد بيموت فيك ليه؟!

ـ أحط لك في نصيبك جوزة الطيب يا حماتي؟

ـ الله يخيبك يا مها ، راحت الأيام الحلوة.

ـ بلاها جوزة الطيب أحسن تحمي وتفركي في السرير لوحدك ومفيش حواليك غير العيلين، خلي جوزة الطيب والمستكة لمحمد حبيبي .

تخبطها المرأة بود، وتذهب إلى حجرتها وقد التمعت عيونها بفرح طفولي.تركت زوجة ابنها تكمل أغانيها غير المترابطة، وبين الحين والحين تلتقط أغنية تحفظ كلماتها جيدا وتجد مها قد غيرت فيها حسب ذاكرتها. تبتسم وتدعو فى سرها :

ـ ربنا يسعدك يامرات ابنى .

هل هي سعيدة حقا وهي تصنع كل الطعام الذي يتخيل زوجها إنه يجعله فارسًا في سريرها؟!.هي لا تريده فارسًا.هي فقط تريد ملمس الحنان الذي تستشعره أحيانا حين ينسى معاركه المتوهمة . ماذا لو أنه اكتفي بتقبيلها وغرسها في دفء لحمه فقط ؟! ماذا لو أنه لاحظ شرودها وانطفاء الحلم داخلها . بعد أن كانت تصرخ قديمًا وهي أسفل منه. الله يا محمد أنا طايرة. لم تعد تُجيد الطيران . وهو لم يعد يهتم إلا بإطالة زمن المعركة التي تجثم على صدرها . تذكرت غادة . لا تعرف لماذا قررت أن تذهب إليها في الصباح وتطيب خاطرها . ولأن مها امرأة تضع روحها في كل أمر تصنعه؛ تبكي كثيرًا حينما تتلمس مساحات الدفء في صدر زوجها، ولا تجدها. تنظر إليه حين لا يقدر حتى على التقاط أنفاسه بعد أن ينتهي منها. تُهزُّ رأسها وتصمت حين يسألها :

ـ انبسطتي يا مها .

كثيرة هي المرات التي فكرت في هزِّه بعنف،وأكثر هي المرات التي فكرت في الصراخ في وجهه: لا .

لكنها حين تجد مساحة الانكسار في عينيه تتراجع،وتهزُّ رأسها باسمة. يعتقد أنه قد روي جسدها الذي يتعطش إليه؛ فيقوم كقائد عظيم حقق انتصارًا لا بأس به لجيشه. يدخل إلى المطبخ يأكل شيئًا سريعًا من طبق الحلو الذي أعدَّته له قبل جولته الناجحة بكل مقاييسه هو، ثم يعود إليها. يجدها تنظر إلى سقف الغرفة .يضحك، ويُقدِّم لها قطعة بسبوسة؛ فترفض. يعتقد أنها مازالت تمارس الطيران :

ـ أنت لسه في الحالة

ـ لا أبدًا، هقوم دلوقتي .

يكمل التهامه لما في الطبق، ثم تكركر المياه في جوفه، ويتجشأ .يخبط على صدره؛ تقول له غاضبة :

ـ محمد بطل العادة دي .

يعجب من ثورتها المفاجأة ويغلق النور وينام .

16

غابت غادة في مساحة من الصمت. همست لنفسها ماذا يحدث لو إنني تحولت إلى ريشة تطير، وتعلو، وتهبط لا يعوقها شئ ؟ سلوى اخترقتني، ونظرت داخلي. رأت الأشياء التي أعمل جاهدة علي أن أخبئها بين ضلوعي. تزاحمت الأفكار في رأسها؛ فلم تنتبه لسبعين عينًا تُحدِّق فيها. تنتظر العيون الصغيرة الأمر بإخراج الكراسات و الكتب. لقد وضعت سلوى كلتا يديها في قلبها. أزاحت الساتر غير المرئي الذي تخفي وراءه كل الأشياء المحرقة. أشياء تخبئها فى أعماقها. تخرجها أحيانا فى لحظات وحدتها، ولكنها تُعيد دسها في أماكنها العميقة بسرعة. لأنها تخفي هذه الأشياء تصبح مثل واحد يكور كرات من لهب ويلقيها داخله، ولا يسمح لها بالظهور على السطح .هذا لا ينفي وجودها؛ بل يزيدها قوة وإيلامًا،ولا بد يوم يأتي، ويزداد الضغط؛ فينفجر الواحد من الداخل . حُرمت، وهي بعد صغيرة من الحنان والاهتمام؛ فصارت وهي كبيرة تُعوِّض نفسها بشتى الطرق. لم يعد يهمها شيء إلا نفسها. صارت تحرص كل الحرص على أن تحقق لنفسها كل ما تتمنى. حاولت أن تعرف سلوى من خلال لعبة الأسئلة، لعبة تعلمتها من امرأة إنجليزية تعرفت عليها حين سافرت إلى إنجلترا.

ارتاحت غادة كثيرًا لصيغة الاتفاق غير المعلن، الذي توصلت إليه مع زوجها. لم يعد مخدوعًا.الآن لم يعد أحدهما معنيًا بالمحافظة على الطفلين، اللذين ظلا صمام الأمان لهذا الزواج.

الآن لم يعد واحد منهما يفكر في الطفلين. أصبح الاتفاق غير المعلن هو الوسيلة الوحيدة لاستمرار الحياة بينهما.

هو يريد منها وضعًا اجتماعيًا مقبولاً، وتظاهرًا باستقرار عائلي. هي تريد كل ما يوفره لها من مركز اجتماعي، ونقود كثيرة تمكنها من عيش الحياة، التي حرصت عليها كثيرًا.

خيبات كثيرة مرت بها. سعادات أكثر مبتسرة ولم تكتمل. حاولت القبض على لحظات تتحقق فيها. تتسرب منها لحظاتها،كمن أصيبت بلعنة، فلا تكتمل لها علاقة حقيقية.

حاولت تقبل من حولها .حاولت أن تنال رضاهم،لكنها أبدًا لم تسمح لتلك المحاولات أن تأتي على حساب نفسها.

أصبحت دائمة الانتقاد لزوجها. لم يعد يعجبها منه شيء.

كل رجل تقابله تبحث عنده عن جانب تفتقده فيه.

مما يثير الدهشة أنها لم تشعر يومًا بالذنب، وهي تُقيم كل تلك العلاقات التي لم تتم ـ بالطبع ليس خوفًا من انتقاد الآخرين ـ ولكنها دائمًا تعامل الرجال في حياتها بمنطق المُعلم؛ فهي دائما تحاول تعليمهم كيفية التعامل معها. تمارس عليهم دور الأستاذ حتي لا تواجه بنفس السلبيات التي تفتقدها في زوجها.وهذا ما يجعل الرجال يفرون منها، فالرجل حتمًا لا يحب القيام بدور التلميذ .خاصة من امرأة يحبها، ويتخيل أنه رجلها ـ وإن كان مدركًا أن لها رجلاً آخر يشاركه فيها ـ الآن ، وبعد كل هذه الخيبات، لم تعد قادرة على تمثيل دور السعيدة مع زوجها، والتظاهر بالاستقرار الأسري من أجل أي شيء. الآن تقف أمام نفسها، وبشكل واضح تماما، تؤكد أنها لم تحبه يومًا.

تفكَّر أنها لم تخلص له، ولو مرة وحيدة، حتى، وهي مخطوبة له، كانت تخونه. ربما لم تصل خياناتها إلى حد إقامة علاقة جنسية كاملة مع رجل. لكنها على أية حال لم تخلص له يومًا.

ربما حرصه الشديد على أسرته، وحنانه على الطفلين جعلها تشعر بالذنب نحوه، ومع ذلك جلست أمامه، تنتقده بمنتهى القسوة، وتتهمه بإهمالها وعدم الشعور بها. أخطاؤها ـ وإن كانت صغيرة ـ واضحة تمامًا لأنها دائمة الجدل والحوار، في حين ترتكب كثير من النساء الأخطاء، التي لا يمكن لرجل أن يغفرها، أو يسامح فيها ومع ذلك لا يحاسبهن أحد؛لأنهن يجدن التخفي والتظاهر بالعفة والبراءة. هي يتهمها الجميع بالوقاحة؛ لأنها تعلن دائمًا أن المرأة يجب أن تكون واضحة مع نفسها ومع الآخر،.إن لم تكن تحبه أو توقفت عن حبه؛ فلتقل له،أو لتتركه، وتبحث عن آخر تحبه بشكل لائق حتى لا تلجأ لخيانته، ومع ذلك ظلت مرغمة على العيش معه بإرادتها أحيانًا، وبغير إرادتها أحيانًا أخرى كثيرة.

هي دائمة الرفض للثنائيات التي تتحكم في حياة المرأة. المرأة تخلص والرجل يخون.المرأة تعطي والرجل يأخذ. المرأة تُحَاسَب والرجل هو من يحاسبها. تُضطَهد والرجل من يضطهدها تمردها الدائم جعلها تعلنها بشكل دراماتيكي، لا يخلو من حس مأساوي على الأقل تعلن لنفسها : أنا لا أصلح للزواج.

سأطلب الطلاق. سأعيش حرة دون التقيد برجل .

17

كثيرًا ما نظرت وفاء إلى زوجها نظرة شفقة؛لغضبه الدائم منها .هو يغضب من أشياء لا تفهمها. لماذا لم تتفهم عالمه؟!

هي لا تدرك كيف يغضب كل هذا الغضب لأن فريقه الذي يُحبه لم يحقق النصر! من أين يأتي بهذه الطاقة، حتى يصرخ لأن لاعبًا أضاع فرصة على الفريق؟!

أما كان أولى به أن ينتبه لأبنائه ويربيهم معها، بدلاً من تركها هكذا وحيدة تحارب في كل الجبهات،أما كان الأولى به ألا يُمثّل ،هو وحده أقوى جبهة تحارب فيها؟!

لماذا لم يغفر لها قسوتها معه قبل الزواج ؟! ألا يُدرك أنه يقهر روحها كل يوم مئات المرات؟!

حين يجدها تسرع إلى مرسمها؛ لتجلس ولو لحظات أمام لوحتها التي لم تنهها بعد . ينظر إليها بحقد،ويخبرها أنه يومًا سيحرق لها كل هذه اللوحات.تنسحب من أمامه خائفة. تعرف تمامًا أنه قادر على فعلها. لولا محاولاتها المستميتة في التذلل إليه لفعلها. رغم ذلك تتعاطف معه. حين تجده حزينًا؛ تتمنى أن تجلس بجانبه. تأخذ رأسه بين نهديها. تضمه إليها،ولكنه يحرص كل الحرص على ألا يُعطيها هذه الفرصة. يصدها بيد قاسية؛ فتخجل من محاولات التقرب إليه. جلست بالقرب منه تحاول وضع الكلمات على شفتيها. تقول في صوت ضعيف كأنه يأتي من أعماقها :

ـ أختك اتصلت النهارده، قالت إن أبويا مريض .

يرد في لامبالاة :

ـ ماله ما هو كان زي الجن إمبارح، وورطني في حساب مشروباته هو وأصحابه على القهوة .

ـ مش عارفة !مرات أبويا كان صوتها فيه حاجة جد، مش مجرد شوية برد .

ـ ربنا يشفي عقله يا أختي متخافيش كده ، ده هيدفنا كلنا .

تعود لصمتها الذي يتلبسها. لا تتحدث إلا إذا وجه إليها الكلام . تقدر على الصمود في وجه محاولاته المستميتة التي يسفه فيها من أفكارها ومشاعرها .مرَّنت نفسها ألا تكترث له. تتجاهل هذه المحاولات، وتنصرف إلى أبنائها، كنزها الوحيد الباقي. تعتني بهم وتغرس فيهم بعض روحها، ومع ذلك تلتمس له العذر أحيانًا،وتلوم نفسها لأنها تتمنى موته، وتردد :

ـ علشان الأولاد ميحسوش بأنهم أيتام .

وفاء تعلمت كيف تتجنب غضب رجل عاملها بقسوة وكره. لم ينس لها أبدًا نفورها منه. قسوتها معه في بداية زواجهما. حين يضيق بها الحال، تثور عليه وتطلب منه أن يطلقها، وهو يبالغ في قسوته وضربه لها.

أبوها يُصبِّرها، ويعيدها إليه خوفًا من زوجته. يدفعها كثيرًا إلى خارج الشقة على مرأى ومسمع من الجيران، ويغلق الباب، فلا تجد مفرا من أن تدخل عند الجيران، حتى يهدأ، ثم تعود إليه مرغمة.

الآن تعلَّمت أن تخضع لأمره. يحتضنها، ويبكي كما الأطفال. وفي لحظات الصفاء القليلة في حياتها؛ تضحك له، وتقول أنها لديها أربعة أطفال وليس ثلاثة؛ فيقبل يديها، ويقول لها أنها أمه. بعدها بقليل قد يضربها ، لأنها قالت رأيا لم يعجبه مثلاً.

صوت الصغيرة التي علا صراخها يعيدها إلى وعيها.

18

(أبويا زرعلي عودين قصب يا فرحتي بيهم .

ركبت الكحيلة ورحت أشوَّط عليهم.

لقيت بنت السلطان فارشة وراقدة فيهم.

قلتلها ليه كده يا بنت السلطان؟

بصتلي بعينيها؛ انكسر قلبي

أبويا لف بي ع الأطبة ما لقي دوا لقلبي

حطني في الملاية وقعد يبكي

نزلت دموع المحبة طيبت قلبي)

المحبة جميلة. المحبة قوية كالموت. حلمت انتصار بها. تمنت كثيرًا أن تُحِب، و أنْ تُحَب.لم تُفلح يومًا في إقامة علاقة مع أحد. شعرت كثيرًا بهذا الشعور الجميل،لكنها أبدًا لم تُفلح . تعلمت كيف تقضي علي أي شعور قبل أن يكتمل، ويصير حبًا لا يُحتمل. حين تمَّ قبولها طالبة في كلية الآداب، قسم التاريخ، وقفت أمام أخيها الكبير.ارتعش قلبها، وهو يهددها إن هي أقامت علاقة مع أحدٍ يومًا؛سيقتلها. من يومها صارت تتمنى فقط. لا تفعل شيئًا سوى تمني

الحب. حين تقدم لخطبتها أحد أصدقائه؛ وقفت أمامه ـ هي الجامعية ـ وحطَّت عينيها في الأرض وقالت :

ـ اللي تشوفه يا أخويا .

تمَّ زواجها من رجل، كل مؤهلاته أنه يصلي مع أخيها، قالت فى نفسها :

ـ راجل والسلام.

لم يدخر وسعًا في الحقيقة كي ترضى،لكنها لم تشعر يومًا بحبه، رغم طيبته المبالغ فيها.

وجهت كل طاقتها إلى تربية ابنتها .سمعت صوته يتفق مع أخيها على السفر. ذهبت إليه، وقالت له :

ـ محمود مسافر فين ؟

ـ السودان أنا وعلي .

ـ محمود علي أخويا ولاده كبار، ودكانه شغال كويس ما شاء الله، متزعلش يا أخويا ربنا يزيدك، ولكن كل يوم والتاني سفر؟

رد أخوها بغضب :

ـ عايزة إيه يا انتصار اللي هتعوزيه؛هيوصلك من الإخوان، ومتدخليش في كلام الرجالة .

ـ يا أخويا مراتك حواليها إخواتها، وإحنا أولى بيه ، دعوة إيه اللي هتقدموها في السودان !

ـ عيب عليك يا انتصار ده طالع في سبيل الله مش رايح يتفسح، اخشعي شوية .

حين لمحت الغضب في عيونهم؛ تصعَّبت، وانسحبت للداخل .

هكذا تخسر كل معاركها ببساطة وتنسحب فى الوقت المناسب بأقل خسائر ممكنة. تلك حيلتها فى الحصول على بعض ما تتمنى. هو نفسه كان يدرك حيلتها، ويترك لها فرصة الانسحاب فى الوقت المناسب، وربما يتنازل عن جزء من طلباته على سبيل المكافأة. بهذه الطريقة وافق على أن تكتفى بالإسدال بدلا من النقاب، لم لا .. أمَةٌ مطيعةٌ، من بيت طيب.

ربما فى معركة قادمة يقنعها بالنقاب فى مقابل مكافأة أخرى، مثلاً: يُخيّرها بين النقاب، أو ترك العمل. تظن أنه من الذكاء بحيث لا يصل بالأمر إلى هذه النقطة. هو ليس غبيًا ويعرف أنها ، فى لحظة مثل هذه ستكون قد خسرت كل شيء، ولن يبقى لديها شيء تتسحب من أجله .

في الصباح رأت غادة قادمة من ناحية مكتب سكرتير المدرسة ، وشمَّت رائحة بارفام (آزارو) الذي أصبح انتشاره فى جو المدرسة دليلاً كافيًا على أن مس غادة موجودة بها.

نظرت إليها في انكسار، ولم ترد علي تحيتها. تعجبت غادة منها، واتجهت نحو الطابور الذي اصطف في انتظار كلمة مدير المدرسة. ابتسم لها زميل، ومد يده؛ ليسلّم عليها. سلمت عليه، وتحدثت بصوت لا يكاد يُسمع. رمقتها انتصار بشعور محايد. لا تعرف هل هو غيرة منها لجرأتها في التعامل مع الرجال ، أم حزن لأنها لا تقدر أن تفعل مثلها. أقبلت سلوى باسمة ، فقالت لها انتصار :

ـ بصي صحبتك ! خليها تتقي الله شوية، من الصبح واقفة تكلم الأستاذ سمير ولا هي خايفة من حد .

ـ يا انتصار بلاش تتجني على غادة، صدقيني دي آخرها كلام ، مش ممكن تعمل حاجة غلط ، سيبيها في حالها .

نظرت انتصار إلى سلوى، بنظرة لا تدل على شيء، واتجهت إلى طابور فصلها الذي ينتظرها. لا تذكر يوما أنها وضعت عينيها في عيني رجل .لا تقدر أن تنظر في عيون محدثها. دائما تُرخى رموشها، وتحتفظ بصورته. تحبسها داخل عينيها وتظل تتذكرها. وربما تشعر بالذنب؛ لتفكيرها في آخر غير زوجها. تلوم نفسها كثيرًا، وتطرد تلك الصورة التي حبستها.

صدر أمر بنقلها من المدرسة. كان لا بد أن تذهب إلي الوزارة لإلغاء هذا الأمر، وهناك قابلته، صديق زوجها ورفيق طفولته. دوما أدهشتها تلك الصداقة التي تجمعهما، رغم اختلاف طباعهما. هو الجريء الذي يفيض مرحًا وحبًا لكل من حوله .جرأته في الحديث كانت تبهرها. حين أحسَّ زوجها بنظرة الإعجاب في عينيها ساعة أن يزورهم؛ دخل القلق قلبه. بدأ ينخر فيه .أصبح يعود إلى المنزل في المواعيد المختلفة؛ ليفاجئها . تتعجب من تصرفاته وتصمت. اشتدت غيرته وقلقه من صديقه الذي يحبه؛حين شعر باهتمام زوجته به. بدأت تدخل حجرتها وتغلق الباب حين يأتي، ولكنها لا تقدر أن تمنع نفسها من الاستماع إلى حديثهما. استراح زوجها كثيرًا،لتصرفها.

بدأ يقبل على صديقه بالروح المحبة التي تعوَّد عليها. بمرور الوقت تناست القرار الذي اتخذته، فلم تعد تدخل حجرتها؛ بل بدأت تجلس معه . تتعمد أن تدخل عليهما؛ لتقديم الشاي. تبحث عن أي موضوع تسأله عنه يخص الوزارة أو المدرسة. عاد لزوجها إحساسه القديم. حاولت كثيرا ألا تفعل ما يثير غيرته، ولكنها لم تقدر. تتعمد الوقوف في محيط عيني صديقه الحميم . كبر إعجابها به .صار حبا يأكل قلبها ـ هي التي لم تحب يومًا ـ، و صار الإحساس

بالذنب يؤرقها .حاولت أن تطرد كل الخيالات التي تسيطر على تفكيرها، ولا تسمح لها بالاستمرار في حياتها.

تحوّلت هذه الخيالات إلى أحلام تعيشها في نومها،كأنها حقيقة. كل يوم تقف أمام المرآة طويلاً تبحث عن لمساته التي ظنتها حقيقة. أنفاسه كانت تشعر بها حية ومحرقة. لم تعد تقدر على تحمّلها .ازداد انطواؤها داخل ذاتها. لم تعد تتحدث كثيرًا. زوجها الذي كان يتضايق من كثرة حديثها، وحكيها عما يحدث لها في المدرسة ، تعجب من حالة الصمت التي تلبستها. ازدادت مهاجمتها لغادة. كانت تهاجم صورتها التي تراها في المرآة في شخص غادة . تحوّلت علاقتها بها إلى عداء غير مبرر. حين تُعنّفها لأنها تقف مع زميل لهم،أو تضحك بصوت عال، في الحقيقة كانت تُعنّف نفسها وهي غير واعية. لم يفهم أحد إصرارها علي تلك المعاملة لزميلة حرة في تصرفاتها. حاولت سلوى مرارًا أن تجعلها تترك غادة وشأنها. ناقشتها كثيرًا :

ـ انتصار غادة حرة في تصرفاتها أنت مش وصية عليها .

ـ هي ناسية أنها في مدرسة مشتركة ، عيب دول ولاد ناس ، وإحنا قدوة . لم تفهم لماذا تتحامل علي غادة بهذا الشكل؟! كانت تطلب منها ألا تستفزها، فتضحك غادة، وتقسم أنها لا تتعرض لها أبدًا، وأنها مريضة نفسيًا.

اليوم بعد مرور سنين على كبت حبها له،تقف أمامه في الوزارة . سنوات مضت لم تسمع عنه شيئًا منذ ازدادت غيرة زوجها، فسارع بقطع علاقته بصاحب عمره.

19

شكّلت المدينة أكبر مفاجأة لسلوى.ذهبت إليها وهي على أعتاب مرحلة مهمة ، مرحلة الثانوية. تمسك بيد نجوى، وتتجهان لموقف السيارات في الشارع الخلفي وراء المدرسة. عيونها تتلصص؛ربما تراه قادمًا. تعاود النظر للخلف. نجوى تتحدث عن ابن خالتها وخطاباته التي تأتيها من الجامعة. تُعجب بالشوارع الواسعة والنظيفة .البنات اللاتي يرتدين ملابس مختلفة عن ملابس الريفيات. تلتفت برأسها للوراء. مازال الأمل في أن يتبعها قائمًا . كان واقفًا هناك بجانب الأشجار القصيرة التي تلف سور المدرسة . يمد يده يتحسس وريقات الياسمين الصغيرة وينظر نحوها . اقتطف زهرة .قربها من أنفه،وأغمض عيونه . في الطريق كانت ترسم لنفسها طريقة للتعامل معه. قررت أن تقهره. تشعر بحدس، لا تجد مبررًا عقليًا له،أنها ستقع يومًا فريسة له. تعرف أنها ستفلت منه، وهي أكثر حكمة وأقوي، وأقدر على

التعرف على المراوغ المتخفي في أدغال روحها، لكنها لا تعرف الوسيلة التي تقهره بها. لا حل لها سوى التفوق عليه في كل شيء. لن تسمح له أن ينال منها .

سحر المرحلة الثانوية لا يقاوم؛ فهي المرحلة التي دق فيها القلب، وارتعش الجسد. جسدها هذا الذي دائمًا ما جعلها تشعر بالرعب. لم تكن صديقة لجسدها يوما. لم تحبه. دائمًا تخشاه. تخشى الألم الذي يسببه لها، والرعب الذي يصيبها بسببه.

هل الجسد يسبب للنساء كل هذا الرعب؟! لا تنسى رعبها وهي صغيرة وجدت لأول مرة دماء تنزل من داخلها.دماء حمراء ساخنة تسيل من ملابسها الداخلية. حبست نفسها في حجرتها تبكي وهي موقنة تماما أن نهايتها قد حانت. أمها دائما ما تحذرها ألا تسمح لأحد مهما كان أن يقترب منها. تحذرها من كل شيء .صار طقسًا يوميًا ذلك الذي تحذرها فيه من أن يلمسها أحد. تدس في يدها النقود القليلة التي تكفي بالكاد لركوب سيارة متهالكة ، وشراء ساندويتش طعمية من بوفيه المدرسة ،وتواصل تحذيرها.

تعودت على كره هذا الجسد .تساءلت دومًا هل الأولاد يشعرون بنفس الرعب الذي تشعر به؟! جلست خائفة على حافة السرير.لا تعرف من أين أتت هذه الدماء؟. حين كانت تتعب من البكاء كانت تحاول التذكر هل وقعت على مؤخرتها. رأتها أمها ذات مرة تمتطى عصا المقشة وتجرى بها ، كانت تظن أن المكنسة يمكن أن تطير، هكذا قرأت فى إحدى القصص عن ساحرة تركب مكنستها وتطير، وعندما رأتها أمها ، نهرتها. ضربتها على وجهها، وقالت :

- عاوزة تضيعى نفسك عشان أبوك يقتلنا .

حين افتقدها أبوها في موعد الطعام، صعدت إليها أمها؛ لتعرف ما بها. أخبرتها ودموعها تسح،ولدهشتها لم تغضب أمها .لم تضرب صدرها بيدها كما كانت تتخيل الصغيرة المرعوبة؛ بل ابتسمت ابتسامة ذات معنى . ذهبت إلى حجرتها، ثم عادت تمسك بقطعة قماش، وملابس داخلية نظيفة. ابتسمت في رضا وقالت لها :

- روحي الحمام نضفي نفسك وحطي القماشة دي علشان الدم مينزلش بره.

لم تحب يومًا ذلك الجسد الذي يمثل كل الرعب لها . تمنت أن تكون ولدًا. جدتها كانت تقول لها البنات أميرات جميلات، ورغم تلك القوة النفسية الهائلة التي زرعتها فيها جدتها وأمها إلا أنها في مرات كثيرة تمنَّت أن تكون ولدًا.

حين أحضرتها الأخصائية الاجتماعية في المدرسة الثانوية وحذرتها أن تبعث لوالدها، لا لشيء إلا لأنها لاحظت ترددها الكثير على مكتبة المدرسة. لم تستطع أن تتخيل أنها تدخل من أجل القراءة،وليس من أجل أمين المكتبة الأستاذ سامي.

أجلستها الأخصائية أمامها. انتبهت أن الباب مفتوح؛ فقامت متحفزة؛ لتغلقه، ثم عادت إليها. لحظات مرت كأنها دهر قبل أن تضع القلم على ملفها.ضيقت ما بين حاجبيها وسألتها :

- ليه بتدخلي المكتبة كتير،و مش بتلعبي مع البنات في الحوش اللي ورا ؟

ارتعبت الصغيرة، وهمَّت أن تسألها وهل دخول المكتبة، والقراءة جريمة؟! لكن المرأة التي تسبب لها الرعب هددتها أن ترسل لوالدها. تعرف كيف يكون رد والدها إن جاءت منها شكوى، هكذا قال لها أمام المرأة ذاتها منذ شهور ، وهددها بسحب ملفها إن اشتكى منها أحد .

- بروح علشان أقرأ.

ارتسمت ابتسامة صفراء على وجهها،وطلبت منها أن تجلس مع زميلاتها في الفناء الخلفي، لم تستطع الفتاة أن تُدافع عن نفسها؛ فقالت بانكسار :

- حاضر .

هي لا تجد نفسها إلا بين أبطال هذه القصص ،الذين أجاد الكتاب صنعهم لدرجة أنها كانت تحب بقلوبهم وتبكي لبكائهم وتطير مع مكانسهم السحرية، هي لا تستطيع السماح لقلبها أن يدق من أجل رجل، فليدق من أجل أبطال على الورق. لن يحاسبها أبوها على حبها لهم.

حين وقفت أمامه منافسة، اتخذها عدوًا له. تمنت أن تكون شجاعةً،و تقف أمامه،وتصرخ: أن يوقفا الحرب المعلنة بينهما .

تدخل المبني الأبيض الصغير الذي تلفه أشجار الياسمين، حيث مازالت قلوب الصغيرات تتحسس طريقها. تجد نجلاء واقفة تتحدث إلى أشرف زميلهما،هكذا ببساطة دون خوف من أحد. تعجب من قدرتها على مواجهة الجميع. تربَّى أشرف معها. يسكن في الشقة المقابلة لها. سارت معه في مراحل التعليم منذ أن عاد أبوه من إعارته من الكويت، واشترى الشقة المجاورة لأسرتها. أرادت الأخصائية الاجتماعية أن تمارس عليهما نفس الرعب الذي مارسته على سلوى. أرسلت إلى والدة نجلاء منذ الأسبوع الأول في الدراسة. أخبرتها أن ابنتها تقف كثيرًا مع شاب وأنها في مرحلة خطر. نظرت إليها الأم نظرة أوقفت الكلام في حلقها، وأخبرتها في هدوء وثقة أنها تعرف كل نَفَسٍ يخرج من صدر ابنتها، وأن أشرف ابن جارهما تربَّى معها منذ المرحلة الابتدائية ، وأنها قامت بما يجب عليها كأخصائية. حذرتها من التعرض لابنتها أو إهانتها. أنقذت الأم ابنتها بكل بساطة من قهر كان يمكن أن يمارس على ابنتها يوميًا من امرأة تدَّعي أنها حامية حمي الفضيلة في مدرسة مشتركة. سارت علاقة نجلاء بأشرف في مسارها الطبيعي. تزوجا بعد أن أنهي أشرف بكالوريوس الطب، وأنهت نجلاء دراسة الماجستير في علم النفس.

كيف استطاعت الدفاع عن عشقها طوال هذه السنوات ؟! ومن أين استمدت القوة اللازمة لرفض كل من تقدم لخطبتها بعد تخرجها من كلية التربية ؟!

أراد أبوها أن يزوجها من وكيل نيابة أتى للمركز مؤخرًا. لمحها حين ذهبت إلى أبيها في مكتبه المقابل،لكن نجلاء كانت من القوة بدرجة مكنتها من الدفاع عن حبها.

ماذا لو استطاعت سلوى أن تقف أمام من تحب، وتقول له تعال ننهي حالة الحرب هذه ؟ هل تستحق الكرامة أن نضحي بمن نحب من أجلها ؟!

كثيرًا ما أتعبها التنافس في كل شيء بينهما لا يريد شيئًا إلا إذا عرف أنها تريده. لا يقرأ في كتاب إلا إذا رآها تمسك به. تقرَّب من أبناء عمها. صار صديقًا لهم؛ بل جاء إلى قريتهم في مناسبات عدة،وكان يتعمد المرور أمام منزلها. حين تلمحه، تبتسم، وترضى. يتأكد لها أنه يحبها، وأنه جاء من أجلها .

أمه توفيت، وتركته صغيرًا.خالته التي تزوجت من أبيه عرفت كيف تقهر طفولته، عرفت كيف تقسي قلب أبيه عليه.

قبل دخولهما الجامعة ، وفي لحظة صيف قائظة كانت تقف في نافذة حجرتها .لمحت البوسطجي قادمًا نحو منزلها. دق قلبها . تيقنت تمامًا أنه يحمل إليها خطابًا منه. قفزت السلم في بضع خطوات. تعجب أمها من جريها المفاجئ وتنادي عليها. لا تلتفت إليها، وتفتح الباب قبل أن يدقه الرجل. ارتعشت يدها، وهي تأخذ الخطاب.لا تعرف لماذا تأكد لها في هذه اللحظة أن الخطاب منه . هل كانت مجرد أمنية ؟!

تناولت الخطاب بيد مرتعشة، وسارت هادئة تمامًا إلى حجرتها، وهي تُداري ارتباكها حتي لا يبين عليها شيء.

فضته، وقرأت : حبيبتي سلوى .. لم تنتظر حتي تكمل ولكنها أسرعت بعيونها لآخر الورقة لم تجد توقيعه. لا اسم هناك يُكذَّب يقينها.همست لنفسها أنه ما زال يكابر.

20

اتصلت غادة بسلوى؛لتخبرها أن التلفزيون سيعرض فيلما شاهدته من قبل في إنجلترا.طلبت منها أن تشاهده بانتباه لأنها ستناقشها فيه. ضحكت سلوى ساخرة وقالت لها :

ـ إنتي خلاص بقيتي ناقدة سينمائية ؟

ـ لا بجد الفيلم ده بالذات بشوف فيه نفسي.

كان الفيلم يتحدث عن سجن من السجون الأمريكية ويحمل اسم السجن. اتُهم فيه رجل ظلمًا بقتل زوجته. ظل الرجل الذي سُجن ظلمًا يتعرض للتعذيب والإهانة طويلاً.

كان البطل يعمل محاسبًا في بنك. تأتي الفرصة لهذا البطل بأن يقدم خدمة لمأمور السجن، فقد قام بحساب ضرائبه، ووفر له مبلغًا كبيرًا من النقود.أخبره أنه يمكن له أن يطلب أي طلب في مقابل هذه الخدمة. طلب المحاسب المسجون بضع زجاجات من البيرة له، ولزملائه.لما أحضر الحراس البيرة أعطاها لزملائه كلها دون أن يشرب ولو شربة وحيدة، وجلس يراقبهم، وهم يشربون ويمرحون وكأنهم جالسون في صالون منزل أحدهم.

نسوا تماما المكان والزمان. كانت السعادة بادية تمامًا على وجه اللمحاسب رضي كل الرضا بسعادة زملائه.

كان هذا الفيلم يصور جانبًا من شخصية غادة. لم تنتظر حتى الصباح؛ لتعرف رأي سلوى. اتصلت بها بعد انتهاء الفيلم مباشرة. تسألها عن رأيها.سألتها عن أهم مشهد في الفيلم أثر فيها. لفت نظرها. لدهشتها الشديدة، وجدت صديقتها تُعلق على مشهد البيرة، فلقد صوّر السيناريو ذلك الإحساس الذي تشعر به غادة، وتستمتع به، حين تحقق لأحد ما حلمًا أو أمنية كان يتمناها .اختنق صوتها بالدموع وهي تقول :

ـ سلوى لسة بتحطي إيديكي كلها جواي .

ـ وده شعور يفرحك ولا يحزنك؟! صوتك كله شجن .

ـ خرجتي كل الحاجات اللي نسيتها من زمان.

قالت جملتها ووضعت السماعة، دون حتى أن تقول سلامًا. جلست سلوى تفكر في أحوال صديقتها المدهشة. ما سبب ذلك الألم الذي تتحدث به؟!

تحاول غادة دائمًا جعل الآخرين يحبونها. يرتبطون بها عن طريق العطاء المادي.علاقتها بأهلها وذلك الألم الذي داومت علي الشعور به نتيجة لمعاملة أمها، جعلها تتقرب للآخرين بهذه الطريقة. اعترضت عليها سلوى كثيرًا. فالحياة ليست عطاءًا ماديًا كما أوضحت لها. حتى زوجها الذي اعتقدت أنه سيكون مختلفًا عن صورة أبيها، صار هو الآخر نموذجًا مشابهًا لأبيها. يثور لأتفه الأسباب. يهينها ساعة الغضب،وبعد أن يهدأ يصير طفلاً رقيقًا وديعًا، هكذا كان الأب. كلاهما صورة من الآخر، وهي ما تزال تعاني من كليهما. ويزيد زوجها على العصبية الدائمة أن عمله وأصدقاءه هم كل حياته. هي آخر من يفكر فيها. لا يعاملها بعطف إلا إذا أرادها. ساعتها ينقلب حاله. تصير هي كل اهتمامه. يلبي لها كل احتياجاتها. يصير

عطوفًا حنونًا، وحين يفرغ منها يهملها. لجأت كثيرًا للخيال وأحلام اليقظة، ولكن الخيال يؤدي إلى نتائج، لا يمكن احتمالها، مما دفعها للبحث عن علاقات، قد تبدو في نظر الآخرين عيبًا.

تعتبر غادة تلك العلاقات نهوضًا للروح في وجه المصاعب. تخلق لنفسها فضاءًا مغايرًا، لما تحياه من واقع.

علاقتها بعلاء المدرس الذي تعرفت عليه في مؤتمر طرائق التعليم الحديث، صارت علاقة ملحة لاستمرار حياتها. كيف لعلاقة عبر الهاتف تأخذ هذه المساحة من روحها؟!

يحادثها في كل شيء بوعي وإدراك.تقارن دوما بينه وبين زوجها أستاذ الجامعة الذي يكره الأدب والفن، إن لم يكن لهما رسالة أخلاقية. زوجها يرفض الحوار؛ بل في لحظات غضبه، يعلن أنه كان يتمنَّى أن يتزوج من امرأة غير متعلمة، لا تتعب رأسه بالمجادلة طوال النهار .

هل سعيها الدائم لإقامة علاقات مع الآخرين رغبة في رجل وحاجة إليه، أم مجرد احتياج لمن تحادثه ويفهمها؟! هذا ما داومت على سؤاله لنفسها. فقط لو أنها تستطيع العيش كما تريد!. لو تكون صادقة تمامًا مع نفسها! لو تقدر على أن تخلع عنها ثوب البراءة الذي ترتديه، ذلك الثوب الذي يحميها من انتقادات زميلاتها في العمل .

21

هكذا دأبت منال على أن تحلل موقفها من الزواج الذي أزعج مَن يهتمون لأمرها، وأثار العجب فيمن حولها .الجميع كان ينظر إليها بشفقة،وينتظر منها أن تنظر للأمر بحساسية .

تغار مثلاً من كل فتاة أصغر منها تتزوج،ولكنها على العكس كانت تحيا حياتها كما ينبغي لواحدة في مثل ظروفها. لم تُعط نفسها مطلقا للوحدة أو جلد الذات، لأنها ضيعت من بين يديها فرصًا كثيرة تبدو للآخرين لا تُضيِّع . تغلبت على تلك المشاعر التي تُشعرها بضعفها. دوما كانت تبحث يشغل فكرها. تعرف كيف تملأ مساحات الوحدة في حياتها. كان أبوها وأمها يشغلان كل وقتها، حتى لما مرض أبوها؛ تماسكت ووقفت بجانبه كما ينبغي لواحدة تُحب أباها، وتخشى عليه الإحساس بوطأة المرض .

استطاعت بقوتها أن تجعله يقف في وجه المرض صلبًا متماسكًا. الطبيب يظهر على وجهه مدى تأخر الحالة، ومع ذلك يستقبله بابتسامة رائقة.ويمزح معه. يخفف عن أمها نظرة الرعب التي تنط من وجهها، وهي تسأل الطبيب عن حالته . استمد أبوها قوته منها. صمدت في وجه الأيام .كانت تجري من أجل علاجه أكثر من أخوتها الرجال الذين انشغلوا عنه. كل واحد

بهمه. كان يتذكرهم، وهي تسرع إلى المعمل؛ لتحضر الأشعة ، أو تنزل إلى الحسابات؛ لتدفع النقود التي تطالب بها إدارة المستشفي. لما تتعب من كثرة الجري، تجلس بجانبه . تحتضن كفي أمها التي انسحب منها الدم وتضاحكها، والأب الذي يتغلب على مرضه بالقوة التي يستمدها من عيون ابنته المشتعلة حياة وحبًا يداعب زوجته الخائفة، ويطمئنها أنه لن يموت، ويتركها حتى تتزوج ابن خالتها الذي كان يحبها قديما .

تبتسم البنت وتخبر أمها أن في حياة كل امرأة ابن خالة ينتظر، أو حتي ابن الجيران .تبكي المرأة التي ترى الحياة تنسحب من رجلها واحدة واحدة، ولا تستجيب لمزاح الرجل الذي يشعر بشبح الموت قريبا، ويحاول أن يتغلب عليه بالمزاح. يحاول الرجل الصامد أن يُسرِّي عن زوجته، ويشفق على ابنته التي تبدو صامدة، وهو يدرك ما تعاني . ترى من لك يا ابنتي حين أرحل ؟.

حين أخبرها الطبيب بقرب نهايته المحتومة،كل ما فكرت فيه ساعتها: كيف يمكن لأمها أن تتحمل الحياة بعده. تتمنى أن يُوجد شيء يخفف عن أمها . حدث ما خافت منه تمامًا سُحبت الحياة من أمها بعد موته ببضعة أشهر.

دخلت عليها في الصباح؛ لتوقظها؛ حتى تعطيها الدواء قبل خروجها للعمل .وجدتها ميتة. هكذا ببساطة ماتت دون ألم أو معاناة. دون أن تدفع ابنتها إلى معاناة جديدة.

ماتت وتركتها تواجه الحياة وحيدة رغم الأخوة الكثيرين الذين يحملون مثلها نفس الاسم. بعد موت أمها وأبيها وضعت منال كل همها في أبناء أخوتها، فقامت برعايتهم. لم يمنعها عنهم سوى ألسنة أمهاتهم التي لا ترحم. لم تجد أمامها سوى زملاءها وأصدقاءها. صارت تجد نفسها في رعاية كل من حولها. تضحك منها زميلاتها، ويخبرنها أنها عندها أمومة طاغية. تمازحهن وتخبرهن أنها تعتبر هذا مدحا، وليس ذما . لا تعرف هل عوضها ذلك عن ألم الوحدة أم لا ؟ ولكن كل ما تعرفه أنها لم تعد تذهب إلى كل الأماكن التي جلسا فيها سويا .

لم تعد تبحث عنه في كل الأشياء التي كان يحبها.

أبواه اللذان داومت على الذهاب إليهما بعد رحيله نسيتهما في هموم وفاة والديها .

هل نسيته حقا؟!

تلاميذها الذين أحبتهم جميعًا، وصارت لهم أمًا أيضًا أنسوها ألم الفراق لهؤلاء الأحبة جميعًا .

الأحبة الذين غدروا بها، وتركوها تواجه الأيام وحيدة وصامدة . الكل يحسدها على صمودها. لا يعرفون ذلك الوحش الذي ينهش قلبها حين تفعل كل ما يجب عليها، وتدخل إلى سريرها، ترغب في نوم هادئ بعد المجهود الشاق الذي تداوم على بذله طوال النهار .

تزحف نحوها ذكري كل الذين خانوها ورحلوا .

تركوها وحيدة.

ساعتها لا يجدي مع هذه الذكريات التي تصبح حية ومؤلمة أي عمل تحاول أن تشغل نفسها فيه، حتى وإن تركت سريرها المليء بالذكريات .

22

كانت غادة واقفة أمام شجرة الليمون المليئة بالطيور ، عادت بها الذاكرة إلى شجرة ليمون تشبه هذه كانت تتوسط حديقتها في منزلها في إنجلترا الذي وفّرته الجامعة لزوجها. كأنها الآن تجلس في الشرفة . ناداها خالد، فلم ترد. خرج إليها. داعبها بتقبيل رقبتها .أبعدته ودخلت دون كلمة. أشعل تصرفها حقده. تحمّل كثيرًا مزاجها المتقلب . تُقبل عليه مشتاقة محبة. تحتضنه، وتمارس معه طقوس الحب،ثم تنفر منه، وتبعده عنها .

يشعر بالحقد في نظراتها وصوتها. دخل وراءها.صرخ فيها، واتهمها بالبرود . نظرت إليه في لا مبالاة، ولم ترد. ألقى بها فوق السرير.مزَّق عنها ملابسها واعتلاها، وهي مستسلمة تماما كأنها ليست هي التي يتم اغتصابها. بعد أن فرغ منها، جلس بجانبها يبكي. يقبل يديها، يطلب عفوها .

صامتة هي تمامًا لا يرمش لها جفن. يخيل لمن يراها، أنها فارقت الحياة. بعد أن هدأ تماما، حكت له عن أختها التي اتصلت بها . أخبرتها عن موت أحمد. صرخت أختها في التليفون(مات يا غادة، مات، أحمد مات خسرناه إحنا الاتنين)

هو يعرف تمامًا مدى حبها لأحمد زوج أختها. طلب منها أن تبكي . نظرت في الفراغ ولم ترد. احتضن جسدها المتصلب؛ فاستكانت تمامًا. ثقل جسدها؛ فعرف أنها نامت. أرقدها على السرير. غطاها، وخرج إلى الشرفة يدخن سيجارة،ويفكر في أحوال زوجته. لولا حبه لها، ومعرفته أنها لم تخنه يومًا؛لتركها.

يثق أن حبها لأحمد لم يتعد مشاعر المراهقة. اتصل بأختها يواسيها ويخفف عنها .

ظلّت راقدة هكذا لا تفعل شيئًا . لا تأكل ولا تنام. لا تتحدث. خاف عليها؛ فأدخلها مصحة للعلاج النفسي. لم يُفلح الطبيب الشاب بلهجته الإنجليزية الباردة والمتعالية أن يرحمها من الحلم الذي يعاودها كل ليلة، رغم الجلسات الطويلة للعلاج.

ظل الحلم يتكرر كل ليلة:هي في مكان ما غير محدد المعالم . تعرف أنه ساحة أو ميدان حرب. في السماء طائرات كثيرة تلقي عليها قنابل. تحاول الهروب، ولا تقدر. تطاردها الطائرات . تتساقط القنابل من حولها. تظل تجري خائفة. في النهاية تستجمع قواها، وتذكّر نفسها أنها في كابوس؛ فتستيقظ صارخة، تبحث عن زوجها؛ فلا تجده.

لا تجد إلا الممرضة الإنجليزية، تسرع بإعطائها حبوب المنوم؛ لتغرق مرة أخري في نوم يشبه الغيبوبة. في اليوم التالي تتوسل إلي زوجها أن يعيدها إلي المنزل، وسوف تتحسن أكثر بعيدًا عن هؤلاء الإنجليز الذين يراقبون حتى أحلامها.

أمام إلحاحها لا يجد زوجها إلا الرجوع بها على أن تعاود الطبيب مرة كل أسبوع.

في البيت تحلم نفس الحلم؛ فتصرخ. يجرى إليها. يحتضنها، ويبكي، حتى تسمح له بالنوم جوارها.

ترفض برعب غير مبرر.يترك لها الحجرة ويخرج منكسرًا . تحاول النوم؛ فلا تستطيع.تخشى أن يعاودها الكابوس مرة أخرى .تذهب إليه. تدخل تحت ذراعه، وتنام .يعتدل ناحيتها، فيجدها منكمشة فيه.يتحسس بيده صدرها. تتحول في حضنه إلى قطعة من الثلج،وهو يواصل امتصاص صدرها .تشعر برغبة في القيء؛ فتجري من تحت رجل لا يشعر ببرودة جسدها، و انفلات روحها . لا يجيد التعبير عن الحب إلا بلغة الجسد.

ماذا لو أنه اكتفي بأن يحتضن جسدها فقط ؟! ماذا لو أنه حاول التعبير عن حبه بالحديث الهادئ الدافئ؟ ماذا يضيره لو أنه استمع إليها.تركها تتحدث عن أحمد وذكرياتها مع رسائله التي كان يبعث بها إلى أختها ؟!

هل تستطيع أن تعترف له أنها كانت تفتح رسائل أحمد، وتتخيل كل مرة أن رسائله موجهة لها هي وليست لأختها ؟!

هل تقدر مثلاً أن تريه كل الردود التي جهزتها ردًا على رسائله التي لم تكن يومًا موجهة لها.

ظلت تجهز له رسائل لم تصل أبدًا . ولم يشم العطر الذي عطرتها به ؟!

هل تقدر على إخراج رسائلها التي لم تصل يومًا لحبيبها،وتجعله يشم العطر الذي عطرتها به ؟

استغرقت الأفكار فلم تستمع إلى صوتٍ يهتف بألم :

ـ مس غادة.

تعاود الصغيرة النداء :

ـ مس غادة .

تسرع شيماء، تلك التلميذة المنكسرة التي احتار الجميع في إخراجها من عزلتها .تلقي بنفسها في حضنها. تابعت سلوى الموقف من بعيد. لم تقترب منهما.

شيماء تنتحب، لفقد أمها. الجميع يعرف مدي ارتباطها بها. هي التي ربَّتها بعد موت والدها. جسد الصغيرة يرتعش. تبكي بحرقة. وغادة تلف ذراعيها حول جسدها. تغلغلت في قلوب البنات .من لك الآن يا صغيرتي بعد أمك، جملة ترددت في ذهن سلوى، وهي تتابع

الموقف من بعيد. تعرف ظروف الصغيرة. رفضت أمها الزواج وقررت أن تتفرغ لتربيتها. عمها يعرض على المرأة الزواج،بحجة تربية ابنة أخيه.

لم تقدر أن تدخل على ابنتها رجلاً غريبًا،حتي لو كان عمها . توقفت الصغيرة عن البكاء. اتجهت نحوهما سلوى. أخذت الصغيرة من يدها، وذهبت بها للحمام. جلست غادة ساهمة.

عادت سلوى بالبنت بعد أن هدأتها تماما. نادت على رنا صديقتها الوحيدة في الفصل الثاني.طلبت منها ألا تتركها، وأن تخفف عنها، ثم اتجهت إلى غادة التي ما تزال جالسة تضع ذراعيها فوق رأسها، وتنظر في الفراغ. اقتربت منها. يديها تلف جسد غادة الذي يرتعش. قرَّبت الكرسي، وجلست بجانبها:

ـ تعرفي يا سلوى أنا عمري ما حسيت بأهمية الأب و الأم.

ـ إزاي إحنا من غير أهلنا ولا حاجة.

ـ بابا كان قاسي. شايف إن الشدة أفضل طريقة لتربية البنت.

ـ الأب يمكن يتعامل بشدة، بس الأم ! دلوقتي بس شيماء هتحس إنها يتيمة .

ـ سابتنا للمربيات،وكل ما أتعود على واحدة يغيروها .

أمها سيدة الصالونات، أستاذة الجامعة، لم تلحظ انتفاض اليمام تحت بلوزتها. لم تكن هناك حين فاجأتها الدورة الشهرية. لم تكن هناك لتجري إليها خائفة ومندهشة . لم تكن هناك حين كتبت أول خطاب غرامي ودسته في جيب أحمد خطيب أختها .

كانت غادة تشعر برغبة فى الطيران، كلما تأزَّمت العلاقة بينها وبين زوجها. تصعد إلى سطح منزلها. تقف على حافة السطح. تمدُّ ذراعيها، وتحاول الاتزان و التماسك، حتى لا تسقط.

هل كانت تخشى السقوط بالفعل؟! هل رغبت حقًا في الطيران ؟ في بداية الأمر ـ الذي صار عادة لديها ـ كان خالد يُسرع إليها. يتخيل أنها ستُلقي بنفسها. يشدها إليه. يحتضنها، ويعود بها إلى أسفل. تلتصق به كي يحتويها أكثر؛ فيضحك ويقول :

ـ عندك نقص حنان .

ويبدأ ـ كعادته ـ في التسرية عنها بممارسة الحب معها.تتهمه بعدم الإحساس بها. تطالبه بتغيير هذه الطريقة للتعبير عن الحب. فإذا أراد أن يعبر عن حبه حقًا يكفي نظرة عطف أو حضن دافئ ليس وراءه أي رغبة.

دائما يأتيها دون رغبة منها.

لم يفكر يومًا إن كانت تريده في هذه اللحظة أم لا؟!

إن كانت تشاركه انفعاله، أم أن جسدها بارد كالثلج؟!

وحين يقضي حاجته منها يتركها، دون أن يتساءل: هل استمتعت أم لا؟ دائما تُمثّل عليه الاستمتاع، حتى لا يتهمها بالبرود.

الآن تصعد إلى السطح؛ لتعيش لحظاتها الخاصة.

لحظات الإحساس بالطيران.

الآن لم يعد يهتم إن كانت ستلقي بنفسها أم لا؟ّ!

لحظاتها هي دون غيرها. لحظات التخيل والجنون. تصعد. تفرد ذراعيها.تتسامق للسماء. ترنو إلى النجيمات البعيدة التي توقن إنها تبتسم لها.

تُفيق على صوت صغيرها يناديها غاضبًا باكيًا .

صوت زوجها يأتيها ساخرًا. تنزل من على حافة السطح .تبعث بابتسامة رضا للنجيمات البعيدة،ثم تكمل نزولها إلى أسفل.

ينظر زوجها إليها، دون تعليق، ودون أن يُبدي اهتمامه بطقس الصعود والطيران المزعوم ـ كما يصفه دائمًا ـ تأخذ صغيرها الباكي في حضنها وتنام .في الصباح جلست الصديقتان في شمس يناير الدافئة ، كل تخبئ حلمها في ثوب الأحلام الذي يغزلنه بعيدًا عن عيون رجال لا يشعروا بهن. اقترحت سلوى أن تذكر كل منهما مكانًا مثّل الأمان في لحظات ما أُحكمت العقدة حول روحها. تذكرت غادة شجرة التوت التي كانت تتوسط حديقة منزل أسرتها. كانت تختبئ وسط فروعها. تختبئ هي ونفسها بين أغصان التوتة من غضب أمها الدائم وتعنيف أبيها. وحين تكتشف الأم أن ابنتها تتسلق التوتة تغضب وتقول :

ـ يا بنتي خليتي إيه للولاد؟ ممكن تتفتحي وأنت بتطلعي الشجرة .لم تكن تعرف غادة كيف يمكن لها أن تُفتح كما تقول أمها. المهم أنها كانت تجد الملاذ حين تشعر أن لا أحد يحبها أو يفهمها. نرمين أختها لم يكن يعاقبها أحد . وأشرف لم يكن يحاسبه أحد،هو الولد الوحيد ومن حقه أن يحاسب أختيه. بالطبع لم يكن يقدر على توجيه أي لوم لنرمين لأنها كانت تجري إلى أمها صارخة؛ فتنهره الأم.لا يجد أمامه إلا غادة التي تكبره بعامين. يحاسبها على خروجها ودخولها. نالت غادة نصيب الأسد طوال حياتها من غضب أمها وأبيها وأشرف الذي يعمل عليها رجلاً. كانت أمها تدعو صديقاتها إلى صالونها أو جلسات النميمة ـ كما كان يسميها أبوها ـ كانت تفكر في نرمين ماذا ترتدي ؟ كيف ستقابل معها الضيوف ؟ أما غادة؛ فدائمًا منسية بين أغصان التوتة. ذات يوم دعت زوجة عميد الكلية، ومعها بعض الأساتذة من النساء. تذكرت غادة. الله وحده يعلم لماذا تذكرتها في هذا اليوم بالذات. يعلم الله أنها لم تكن سعيدة بهذا التذكر.قالت لها عندك نرمين تستقبلهم معك، لكن الأم أصرت أن تشتري لها فستانًا جديدًا يليق بالمناسبة بدلاً من الفساتين الأخرى التي أبلتها، وهي تتسلق التوتة.عادت إلى

السوق التجاري مرة أخرى. اشترت لها فستانًا كانت راضية عن نفسها تمامًا، وهي تدفع نقوده للبائعة، التي دعت لها أن يبارك لها في الهانم الصغيرة. أعجبها الدعاء؛ فتركت للبائعة بقشيشًا لا بأس به.عادت إلى المنزل قبل مجيء الضيوف، تُعلِّم ابنتها كيف تكون لطيفة مع ضيوفها . أخذت غادة الفستان من يدها ودخلت حجرتها ارتدته . جلست تنظر لنفسها في المرآة. فجأة قفز في رأسها خاطر شيطاني.تذكرت مساحات الألم التي عانتها حين كانت تتركها وحيدة في المنزل في مناسبات عدة وتأخذ معها نرمين. تذكرت كيف كانت تفخر بدلوعة ماما نرمين ضيوفها.قررت أن ترد لها الألم مضاعفًا. خلعت فستانها الجديد. ارتدت فستانًا حرصت على أن يكون باليًا، و لا يليق بضيوفها(الكلاس). دخلت عليهن الصالون حافية القدمين. تبادلت الصديقات النظرات. امتلأت أمها غيظًا. سحبتها من يدها، وأدخلتها حجرتها. قرصتها في وركها قرصة ـ طلعت بالدم ـ و ألبستها الفستان الجديد.عادت بها إليهن .في المساء حين جاء أبوها فازت منه بعلقة ظلت تتذكرها لسنوات طويلة. بعد أن ذاقت العذاب على يد والدها، لما دخلت على صديقات أمها بالملابس الرثة،قررت أن تفوز باحترام أبيها وأمها. قالت بصوت ربما سمعه أخوها الذي كان يلهو بالقرب منها وبتحدٍ ظاهر، وهي تنام في حضن التوتة :ـ إذا كنت غير قادرة على الفوز بحبهما، فلابد أن أفوز. هي لم تكمل جملتها ، لكنها سمعتها تتردد داخلها بحماس.عادت من فضاء ذكرياتها على صوت سلوى وهي تطلب منها أن تذكر سعاداتها الصغيرة التي مرت عليها. تتذكر أنها لم يكن يسعدها شئ سوى الخيالات التي كانت تغزلها ،وهي هناك وحيدة في حضن أفرع التوتة العتيقة. كانت تتخيل نفسها أميرة جميلة يتهافت عليها الرجال. تتخيل نفسها شابًا وسيمًا يختار من البنات من يشاء،ويذهب إليها هكذا ببساطة ويقول لها: أحبك، ولا يخجل من رفضها، وربما يعاود المحاولة مرات ومرات حتى يفوز بقلبها . كانت دائما تقول ما العيب في أن تصارح امرأة رجلاً بحبها؟! كانت تقف أمام أشرف مذعورة وخائفة، وهو يحاسبها على الجونلة القصيرة التي ترتديها رغم أنها تكبره بعامين تفرح حين تلمح نظرة فرح في عيون محتاج حين يجد ما يتمناه . لا تتردد أن تُنقص جزءًا من مصروفها .تعطيه للمرأة العجوز التي تجلس على الرصيف أمام مدرستها.تجلس بالقرب منها تراقب السعادة على وجهها وهي تأكل . لا يخطر في بال أحدكم أنها كانت تفعل هذا من أجل الخير والثواب، بل كانت تفعل هذا من أجل متعتها الخاصة في رؤية نظرة فرح في عينى عجوز .لا تعرف غادة نقطة التحول في حياتها. لا تعرف ما الذي غير من شخصيتها هكذا. حولها من امرأة صامتة، تجيد كتم انفعالها إلى امرأة

طوال الوقت، تريد أن تعبر عما يدور داخلها. حولها من بنت كانت أجمل متعة في حياتها أن ترى المتعة في عيون من تحقق لهم أمانيهم إلى امرأة، لا تحب إلا نفسها، وما يحقق لها الفرح والسعادة.هل كانت نقطة التحول موت أحمد؟! ربما، أم كانت علاقتها بسلوى ؟! لا تعرف على وجه اليقين ما الذي غيرها حتى صارت هكذا .

23

كانت الأشعة مُسلَّطة على رأسه وهو لا يفعل شيئًا. لا حركة. لا شيء يدل على وعيه بما يحدث. يسمح لها الطبيب بالدخول بعد أن ازداد نشيجها. تسحب سهير الصغيرة رادا من يدها، وتدخل . ينزعج الطبيب الذي يتحكم في جهاز الإشعاع حين يرى الصغيرة تختفي وراء أمها. ترتبك وتحاول إخراجها. عينا البنت مركزتان على وجه أبيها الذي يخلو من الحياة. تنظر إلى أمها؛ فتجد الدموع تنساب في صمت.تتكمش فيها. الطبيب الذي يتحكم في جهاز الإشعاع، ينسى وجودهما.يصفر بلحن تعرفه. سؤال يتردد في رأسها، وهي في طريقها إلى الباب، كيف يتعامل هؤلاء الأطباء مع المرضي هكذا بساطة دون أن يتعاطفوا معهم ؟!

بعد انتهاء جلسة الإشعاع، تمّ نقله إلى حجرته. أرادت أن تجلس معه، لكن الممرضة طلبت منها إبعاد الصغيرة؛ فذهبت إلى أم محمد التمرجية. دست في يدها جنيهين، وطلبت منها رعايتها لبعض الوقت. جلست البنت ـ التي نسيت اللعب والابتسام منذ أن دخل أبوها المستشفي ـ دون أن تُبدي أي اعتراض. قبَّلتها، واتجهت إليه. كان ما يزال فاقدًا للوعي.

جلست بجانبه تمسح عرقه، وتُسوِّي له ملابسه.أفاق، ونظر في أنحاء الحجرة يبحث عن صغيرته . ضغط بيده على أصابعها، وأطال النظر في وجهها. هاله الانكسار الذي يلفها. كم هي هشة ومتهالكة ! وجهها يبدو أكبر من عمرها الحقيقي كثيرًا. كأنها تحمل فوق عظام كتفيها البارزتين جبالاً من الهمِّ. ابتسمت له، ومالت على يده التي تقبض على أصابعها. قبَّلتها، ثم ناولته كوبًا من الحليب البارد. وضعت ذراعيها تحت رأسه، وأقامته قليلاً.

أشاح بوجهه رافضًا الحليب. قبَّلته فوق جبينه، دون أن تنطق بحرف. مد شفاهه، وشرب من يديها. أرقدته على المخدة.

جلست تتحسس موضع الحقن في وريده الذي تورَّم. تاه في مساحة من الذكريات. هي الآن في فضاء تخيّله تجري أمامه في شارع سليمان باشا فراشة مهفهفة تتفرج على الفاترينات، وتود شراء كل شيء، وهو فرح بمرحها. يلبي لها كل طلباتها .

24

انتصار تتهم غادة بالجرأة والسفور. قطبت حاجبيها،ورفعت يدها وشوَّحت بها في وجهها، وحرصت كل الحرص على أن تسمع غادة كلمة أو كلمتين تعبران عن استنكارها الشديد لها، ولتصرفاتها. صوتها الحاد يخلو من الإنسانية،تقول في صوت معدني :

ـ جهنم وبئس المصير.

كانت غادة تجلس بالقرب من باب الفصل في الطرقة التي تفصل حجرة المدرسات عن الفصول.سمعت انتصار تصرخ في إحدى الفتيات.تتوعدها لأنها نسيت كتاب المدرسة.قامت في فضول وتطلعت إلى داخل الفصل.شيماء الصغيرة التي فقدت أمها منذ أيام تقف كما عصفور ضعيف يرتعش وهو مبلل بالمطر أمام ريح عاتية.وضعت عينيها في الأرض.دخلت غادة بعد أن ترددت طويلاً،نتيجة للعلاقة السيئة بينها وبين انتصار .حسبتها من كل الوجوه ، وفي النهاية حسمت أمرها،ودخلت.رفعت انتصار حاجبيها دهشة،ثم تمالكت نفسها أمام الصغار الذين فاجأهم أمر دخول مس غادة هكذا دون إذن من الغاضبة أمامهم .نظرت إليها في قسوة،وقالت لها :

ـ فيه حاجة يا مس؟!

ـ لا بس من فضلك سامحي شيماء علشاني ،والمرة الجاية مش هتنسى.

ـ لو سمحت يا مس غادة ، دي حصتي ومحدش يدخل فيها.

التفتت للجميع في تحد،وأكملت تعنيف البنت.اغتاظت غادة وسحبت شيماء من يدها،وخرجت وسط دهشة التلاميذ،وثورة انتصار التي تركت الفصل، وانطلقت مثل ثور هائج إلى حجرة

المدير.سلوى تدرك أبعاد الموقف.تلوم غادة وتسحبها من يدها وتصر أن تعتذر لانتصار، وترضيها.بعد مداولات وشد وجذب سيطر المدير على الموقف،واعتذرت غادة على مضض.

في المساء حكت لزوجها،فانتقد طريقتها الدرامية في تصوير الأمور والمواقف وقال لها :

ـ أنت إيه اللي يدخلك في حصة زميلتك.

ـ دي عيلة ماتت أمها من كام يوم، حمل شخطة من انتصار؟

ـ الموقف ده علشان البنت ولا غيظًا من انتصار ؟

ـ طبعا علشان البنت الغلبانة دي .

ـ بس البنت غلطانة ومن حق المدرسة إنها تعاقب تلميذاتها زي ماهي عايزة.

نظرت إليه من خلال دموعها، وقالت بصوت ميلودرامي:

ـ لا فرق بينك وبين انتصار.

أغلقت باب حجرتها بعنف رجَّ أركان الشقة.دُهل الرجل من تصرفها وقال بصوت حرص على أن يصلها خلف الباب المغلق: ـ ربنا يشفي، مشكلتنا في الأفلام العربي اللي بتوشفيها كتير.جلست على السرير تناقش تصرفاتها بحيادية تامة.تفكر في زوجها الذي لم يفكر مرة في امتصاص غضبها. دائما يتركها للنيران تأكل قلبها؛ بل يزيدها اشتعالاً حين يسخر منها، ويُسمِّي ما تفعله (أفلام عربي)،ثم قالت بشكل يقيني :

ـ محدش فاهمني غير سلوى .

25

لسنوات طويلة ظلت سلوى تحمل هذا الشعور الذي لم تجربه أبدًا في ذاكرتها. لم تنس يومًا صور الفتيات العاريات، و أبطال السينما معلقة علي جدران حجرة بدور. تعلقت العيون مندهشة بالصور على الجدران .ضحكت بدور فخورة .أخرجت من تحت مرتبة السرير مجلة، غلافها عليه صورة بألوان زاهية ولامعة لفتاة، ترقد علي كرسي مطروح للوراء وأمامها البحر . تعرجات موج البحر في الصورة يصنع انعكاسًا مبهرًا للألوان . فردت صفحاتها بتتابع . فيها رجال ونساء عرايا تمامًا. صرخت البنات فزعات.وضعت كل واحدة يديها على وجهها تخفيه خجلة ومندهشة.صوت خطوات الأم يقطع ضحكة بدور المجلجلة. تدس المجلة بسرعة تحت مرتبة السرير. تخرج بجسدها من الباب .تمد يدها؛ لتأخذ صينية الشاي من يد الأم التي لم يلفت نظرها وقوفها في فتحة الباب .تضع الصينية، وتأخذ طبق

الكعك المحشو بالملبن الذي تجيد والدتها صنعه. صوت خطوات الأم تبتعد. تسرع بدور بإغلاق الباب بالمفتاح، وتجلس علي حافة المكتب. وسط دهشة الفتيات من تصرفاتها التي لم يتعوَّدن عليها قالت منى:

ـ يلا فرجينا على علبة المكياج الكبيرة

علقت مرفت في غمزات؛ لتغيظها :

ـ انتو صدقتوا بدور دي طول عمرها هجاسة. يلا نذاكر أحسن .

أضافت منى:

ـ هوه الأستاذ صفوت هيسمع بكرة نتايج الحملة الفرنسية على مصر ؟

ابتسمت سلوى التي لم تفتح فمها حتى الآن، لانشغالها بالصور على الجدران وردت :

ـ آه النتايج العلمية للحملة.

ثم أردفت ساخرة :

ـ تفتكروا انتو وش مذاكرة. ده متحف ده يا ست بدور ؟

ـ وهو المتحف بيحطوا فيه صور لممثلين يا عبيطة، المتحف أنا شفته فيه تماثيل الفراعنة وصورهم .ضحكت في أعقاب جملتها .أعلنت أنها لن تذاكر حتى تقرأ لهن خطاب ابن خالتها شريف الذي بعثه لها بالأمس.أخرجت الخطاب وبدأت تقرأ :

ـ حبيبتي بدور.

شهقت البنات من جرأته. وضعت كل واحدة كفها علي فمها ، وقالت سلوى :

ـ مش خايفة أمك تشوفه تدبحك .؟

ـ تشوفه إيه يا ماما؟! دي خصوصيات.

بدأت تحكي لهن عنه، وعن السينما والنادي.تاهت كل واحدة في مساحة من التخيل، لم تخرج منها إلا على صوت بدور، وهي تعرض أن تريهن ماذا يفعل معها شريف، حين تكون أمها جالسة مع أمه يشربان الشاي في حديقة القصر. بدأت بمنى. أرقدتها على السرير. مدت يدها؛ لتزيح شعرها عن الوجه الرقيق. مسدت عنقها بكفيها، ثم مدت يدها أسفل ملابسها. صرخت منى، فوضعت يدها على فمها :

ـ الله يخرب بيتك هتفضحينا، وخالتك روحية تطلع لنا حالاً. ثم أحكمت لف فخذيها على جسد منى، الذي يفرفط أسفل منها. مرفت وسلوى تراقبان في خوف ودهشة. استكان جسدها وهدأ، وبدأت تجز على شفتيها، وتتأوه. لم تعد هناك مقاومة تذكر. أغمضت عينيها، وراحت في عالم لم تستطع البنتان تصوره .

هدأ جسدها وأغمضت عيونها، قامت بدور ضاحكة ضحكًا هستيريًا . أصابع بدور المدربة، وهي تشد ملابس منى وميرفت الداخلية . شفاهها تبحث عن حلمات صدر لم تتحدد معالمه بعد . لأوقات طويلة ظلت سلوى تحلم بأن تذهب إليها بمفردها.أن تُجرِّب معها هذا الشعور الغامض الذي أحست به وهي ترقب الصغيرات وتنتظر دورا لم يأت أبدا . بدور التي تركناها تضحك في هستيريا ،حين لمحت نظرة الخوف في عيني ميرفت ونظرة الدهشة في عيني سلوى. تغمز لمنى، وتبتسم .فهمت مني ما تريده؛ فاتجهت نحو ميرفت، وقالت لها في صوت لا يكاد يشبه صوتها المعروف لدى الفتيات بالرقة والهدوء :ـ يلا . الدور عليكي . جربي أنت كمان .فزعت ميرفت .التصقت بالباب .الدموع تنساب من عينيها.سلوى تنظر إليها نظرة حيادية لا تدل على شيء. بدور ومنى يمسكان بها. شدت منى ذراعيها وراء ظهرها. ورفعت بدور جسدها المتصلب على السرير. يدها ترتعش، وهي تفك أزرار بلوزتها. مالت ميرفت بفمها على كتف منى. تحاول أن تعضها.عادت منى برأسها للوراء، وهي تضحك ضحكة عالية.انتبهت بدور لضحكتها العالية؛ فهمست : ـ بالراحة هتفضحينا وتطلعي خالتك روحية من تحت . كانت البنت على السرير بالقميص الداخلي القصير، تحاول التملُّص من يديّ منى التي تجلس عند رأسها، وتمسك بذراعيها من أعلى. بدور تخلع عنها باقي ملابسها الداخلية. اعتلتها تمامًا. لمست بأصابعها حلمات صدرها الذي بانت معالمه. كانت تبكي والبنتان تضحكان بصخب.سلوى جالسة خلف المكتب ترقب.تتملكها حالة من الخوف والانبهار.تود أن تُجرِّب شعور منى التي استسلمت، ولم تقاوم بدور. جلست تائهة ومتحيرة، تتابع ما يحدث. لماذا هدأت مقاومة منى؟! ماذا في أصابع بدور من سحر جعل مقاومتها تسقط تماما؟! البنت ما تزال تقاوم، والسرير يُصدر أصواتًا لا تأبه لها بدور. منى تفكر في الشعور الغريب الذي سيطر عليها.ارتسمت على وجه سلوى ابتسامة غامضة، وهي تُعدُّ نفسها لاقتراب دورها. تشتاق لهذا العالم السحري الذي أدخلتها فيه .لم ينقذ الصغيرة التي ما زالت تقاوم إلا صوت الأم، وهي تنادي على ابنتها.تتعجب من إغلاق الباب بالمفتاح. تقوم بدور منفعلة، والعرق يتصبب منها . تخطف الفستان الذي علقته على الذراع الحديدي للسرير.ترتديه بسرعة. و تمسح وجهها في طرفه.تُسوّي ميرفت ملابسها.يلتف الجميع حول المكتب. تدخل الأم بصينية مرصوص عليها أكواب الليمون الذي تطفو على وجهه الرغاوي البيضاء : ـ لمون خلاط مسكر، يرد لكم الدموية اللي اتسحبت من كتر المذاكرة.ردت سلوى ساخرة بعد أن خبطت بدور في قدميها :ـ فعلا يا خالتي المذاكرة هدت حيلنا ع الآخر. ـ ذاكروا وشدوا حيلكم. عايزين نشوف مين اللي هيطلع الأول؟ردت منى بسرعة طبعًا سلوى اللي هتطلع الأولى كالعادة .فقالت بدور في تحد ظاهر : ـ لأ معلش كفاية عليها الأولى لحد كده. أنا السنة دي

هعملها . دعت لهم الأم بالتوفيق وخرجت. أرادت بدور أن تغلق الباب. أسرعت ميرفت. خطفت المفتاح.ألقت به على السلم.أقسمت أن تنادي على أمها، إن لم تجلس للمذاكرة. أمام التهديد الواضح، لم تجد مفرًا من الجلوس لتُسمعهن النتائج العلمية للحملة الفرنسية على مصر.

26

كانت غادة مسافرة مع زوجها إلى بعثته. ساء الجو؛ فاضطرت الطائرة إلى الهبوط. نزل الركاب للراحة، حتى يتحسن الجو . نزلت مارى معها في نفس الحجرة. لم يكن في الفندق حجرات كافية لكل الركاب، حتى يحين موعد طائرة لندن القادمة. لاحظت غادة نظرات المرأة المحدقة منذ ركوب الطائرة.فسَّرت تلك النظرات بسبب الزي الذي ترتديه. ربما لفت نظرها الإيشارب الذي تضعه على رأسها. نزلت مع المرأة الإنجليزية في حجرة واحدة. نزل زوجها في الحجرة الأخرى مع أحد المسافرين. حين اتجهتا إلى الحجرة سويا. لاحظت غادة ابتسامة غامضة على وجه المرأة. ارتبكت، وهي تضع المفتاح في الباب. لم تستطع فتحه. مازالت ماري مبتسمة ابتسامتها الغامضة.أمسكت بالمفتاح من يد غادة المرتبكة دون سبب واضح. فتحت الباب. دخلت. وضعت حقيبتها على الكرسي.ألقت بجسدها على السرير، وشبَّكت كلتا يديها تحت رأسها .ترمق غادة بنظراتها المربكة.كان الجو مشبعًا بالرطوبة؛ فخلعت غادة ملابسها.ارتدت قميص النوم الأسود .جلست أمام المرآة، تزيل آثار المكياج عن وجهها. اعتدلت ماري، وجلست على السرير تتأملها بعيون شبقة. تراقبها غادة في المرآة. يقشعر جسدها تحت وقع نظراتها المتفحصة.استدارت إليها .تناولت الروب من الحقيبة. ارتدته، وجلست بجانبها على السرير، تشاهد التلفزيون الذي كان يعرض فيلمًا، يتناول علاقة زوجية بتفاصيلها اليومية. امتدت يد مارى، وتحسست فخذها.ارتعشت غادة، وضمَّت ركبتيها إلى صدرها.ماري تتحسس ذراعها؛ فيزداد ارتعاشها. زحفت إلى حافة السرير. ضحكت ماري وقالت لها :

ـ ألم تمارسي الحب يومًا مع فتاة ؟

ردت غادة بإنجليزية مرتبكة: لا ،مستحيل،مينفعش.

كانت تتعثر، وتعيد الكلمات فى رأسها قبل أن تنطقها. تفكر كيف تقول هذا من غير أن تهينها. فى نهاية الأمر ستمضيان ليلتهما فى غرفة واحدة. أخبرتها بأن إقامة علاقة مع فتاة فكرة مقززة، بغض النظر عن المحاذير الدينية .

قالت ماري كلامًا كثيرًا عن ميزة ممارسة الحب مع فتاة. المرأة تعرف مناطق الإثارة لدي المرأة الأخرى، وتعرف كيف تمتعها أكثر من أى رجل. قالت إنه ممتع جدا ومثير.

رفضت غادة تمامًا.دفعت يدها بعنف. كانت تفكر فى زوجها، فى أخيها،ابن عمها، فى كل الرجال الذين راقبوا سلوكها، والخوف الدائم من العار الذي تجلبه الفتاة لأهلها إن لم تتصرف بشكل لائق .سألتها عن الإنجليزيات ووضع النساء هناك؛ فضحكت ماري وقالت :

ـ أنت خايفة من التجربة؟!

وعدتها إن لم تستمتع، ستتركها لحالها.كانت تتكلم بثقة، ومن غير انفعال.كأنما تحكى لها فيلمًا هى بطلته. حكت لها عن صديقة لبنانية تعرفت عليها عند سفرها إلى لبنان. كانت تمارس معها الحب، واستمتعت بذلك لدرجة أن صديقها لم يعد يمتعها مثلها، رغم أنها في اللقاء الأول كانت خائفة هكذا. مازالت غادة خائفة؛ فأرادت أن تبعد تفكير المرأة عن هذه الفكرة؛ فسألتها عن دراستها.عرفت منها أنها تُعدُّ رسالة دكتوراه عن وضع المرأة في الشرق، والعلاقة بينها وبين المرأة الغربية، منذ ملك حفني ناصف حتى اليوم. ولما لم تجد منها فائدة، اقترحت عليها لعبة الأسئلة. سألتها أسئلة كثيرة، وكانت تجيب بعفوية وتلقائية، ثم عادت لتُبدي إعجابها بجسدها، وبشرتها السمراء.النساء في بلادها، ينفقن أموالا طائلة لدى خبراء التجميل؛ لتبدو بشرتهن مثل بشرة غادة. مدت إصبعها، وتحسست حلمة صدرها. سرت البرودة في جسد غادة؛ فقامت من جانبها مسرعة.ارتدت ملابسها، وذهبت إلي زوجها. طرقت الباب بلهفة وخوف.خرج إليها متعجبًا من عدم نومها حتى الآن، رغم التعب و الإرهاق البادیين تمامًا عليها. أخذها، ونزل إلى كافتيريا الفندق، حتى موعد إقلاع الطائرة.

سنوات كثيرة مضت، وهي تتمنَّى أن تُجرب ذلك الإحساس الذي حكت عنه تلك المرأة.كثيرا ما فكرت أن تجربه مع سلوى. وفيما بعد حين كان يطأها زوجها كانت تفكر في ماري، وكلامها عن الإحساس و المتعة.

27

الآن بعد كل هذه السنين، تقف انتصار أمامه في مكتبه. الآن يدق قلبها من جديد. تحدق في عيونه. تعيد إلى عينيها صورته الحبيبة، التي فرَّت منها طويلاً. ارتعش قلبها، وهو يضغط على يديها. تعمد إطالة النظر في عينيها. تشعر بالارتباك؛ فتعرض عليه أمر نقلها من مدرستها. يعدها بإنهاء الموضوع، وعيناه تأكلانها .تربكانها. يالجرأته حين انتقل من مكانه، وجلس بجانبها. مال برأسه إليها. حرص على أن تكون المساحة التي تفصلهما تشعرها بأنفاسه.تعمَّد أن تكون حارة ومحرقة!. يالجرأته حين همس لها أنه تمنَّى هذا اليوم الذي، تجلس فيه أمامه، هكذا دون فاصل كبير! يالقسوته حين حمَّل صوته كل الانفعالات اللازمة لإذابة كل مقاومة باقية فيها! تجلس كالمنومة مغناطيسيًا. تركت قلبها يدق، وصوتها يرتعش،

وهي تحكي له عما فعلت بهم السنون الماضية . حاولت أن تبعد بكرسيها عن محيط أنفاسه؛ فلم تقدر.

نظر إليها باسمًا، وأعاد الكرسي في ثقة بالغة إلى نفس المكان، الذي يُمكّنه من إشعال النار في جسدها المرتعش. حاولت أن تهرب بعيدًا عن أسر عيونه.تحسست أصابعه يديها المرتعشتين، دون مقاومة تذكر منها.عادت إليه بعينيها اللتين لم تطاوعاها وتهرب.حُبس صوتها لدرجة،أنها أعادت الجملة مرتين، وهي تحدد له موعدًا في الأسبوع القادم، تقابله فيه خارج المنزل.

في اليوم التالي، حين قابلت غادة وسلوى في فناء المدرسة. نادت عليهما. ذهبت إليها سلوى.وقفت غادة في مكانها لا تتحرك .نادتها مرة أخري بلطف مبالغ فيه.أيضًا لم تذهب، وحاولت الانصراف :

ـ سلوى هسبقك للمكتبة .

ـ غادة من فضلك لا تنصرفي .

وأضافت في تأثر وحزن:

ـ آسفة على كل اللي سببته لك من مضايقات.

وسط دهشة غادة وحيرة سلوى، تركتهما، وانصرفت ساهمة. قالت سلوى بصوت خبير، وهي تنظر في أثرها:

ـ انتصار بتحب. انتصار في حالة حب .سخرت غادة منها وقالت:ـ مستحيل، دي متعرفش معنى الحب .وأضافت ساخرة.

هل حقا كانت انتصار تقف تحت المطر تنتظره؟! هل هي التي تبكي الآن لأنها لم تره؟! تتجه إلى الله بكل جوارحها؛ ترجوه أن يدعها تراه الآن؟! من لها بكل هذه الجرأة، حتى توقن أن الله سوف يستجيب لها؟! تعرف أن هذا القلب لا يستطيع تحمَّل كل هذا الحب. يا قلب اتسع أكثر، حتى تقدر على احتواء حبيبي.همست:

ـ لو أنني أستطيع أن أضعه في قلبي، ألملمه، وأخبئه تحت جلدي.

توقن الآن أن علاقتهما حقيقية، وإلا كيف تظل كل هذا الوقت واقفة تحت المطر لا تفعل شيئًا سوى انتظاره، والبحث عنه ؟!

لم يعد يهمها شيء سوى أن يأتي .تقبل كل جزء فيه بعيونها . من لها بالصبر، حتى. ليأت يا رب، وأنا لا أريد أن يضمني، أو يقبلني. ليأت يا رب، ولن يهمني، إن ابتسم في وجهي حتى. ليكن بخير يا رب، ولن يهمني إن أتي أم لا. أسمع صوته يا رب فقط لأطمئن.

لم تستطع الانتظار أكثر؛ فاتجهت إلى بيتها خائبة. حين وجدت الصغيرة في انتظارها، ضمتها إلى صدرها. لا تعرف هل ضمَّها لها تعويضًا عن حضن دافئ بحثت عنه، فلم تجده،أم تعويضًا، لصغيرة تقف مرتعشة. تنتظر أمها التي تنساها، وتجري وراء لحظات عمرها التي تتسرب منها؟! تراها تستحق تلك اللحظات، أن تفعل كل ذلك من أجل أن تفوز بها؟! هذا ما لم تطرحه على نفسها ولو مرة وحيدة.

لو وقفت مع نفسها، وتساءلت؛لتغير الوضع. دفست نفسها في حضن الصغيرة، وكأنها تهرب من مواجهة نفسها. حين نامت البنت في دفئها، أرقدتها، وجلست بجانبها. تنتظر مجيء زوجها، وهي تبحث عن مبررات، تليق بامرأة، تركت بيتها تحت أمطار تتساقط وقلب يرتعش.

دخل من الباب.نظر إليها دون أن يعلق. ظلت تحادثه، وتحكي عن أشياء تبدو مضحكة، وتسوق أسبابًا، تبدو واهنة لمن له عين ترى وأذن تسمع .

هل صدقها حقا؟!. هل صدق أنها ذهبت؛ لتزور زميلتها؟!

التصقت به كقطة، تتمسح في أقدام صاحبها. أبعدها عنه بيد لا تشعر بمدي حاجتها له. عاودت الالتصاق به. نظر إليها نظرة حيادية تمامًا، لم تستشف منها شيئًا. أدخلت نفسها تحت ذراعه، واقتربت بشفاهها المرتعشة من رقبته.أدار رأسه بعيدًا عنها.أخبرها أن الصغيرة تناديها.

ماذا لو أنه شعر بها الآن،بحاجتها إليه ؟!

ماذا لو أنه شدها إلى صدره، حين ارتعش جسده، وهي تبحث بشفاهها عن دفئه؟!

لو أنه فقط ضمها إليه،و ساءلها لماذا تأخرت؟!

28

حين وقف ماهر مستندًا إلى السور الحديدي في الدور الثاني في كلية الآداب يقرأ القصيدة، كانت عيناه تبحثان في وجه ابتسام عن لمحة ولو بسيطة لتأثير كلامه. في هذه اللحظة امتلأ الهواء برائحته. تحول جسدها كله إلى مسام تتشمم تلك الرائحة. ظلت ابتسام متوقفة عند هذه اللحظة؛ لم ترخها أمسكت بها تماما. صارت لها الملاذ الذي تلجأ إليه، حين تضيق بها الحياة، لما تقف في مواجهة الريح. تختنق خوفًا من أبيها وأخوتها .

لما تخرجت تقدم إليها شباب كثيرون. كانت تبحث عن لحظتها التي أمسكت بها ولم ترخها. تركها ماهر تواجه مصيرها.

نظر في الأرض،وهي تخبره برغبتها في أن يتقدم لخطبتها.

قال فقط جملة وحيدة:

- روحي لا تسمح.

قالها،ونظر في الأرض. تركها لأبيها و أخوتها.تركها لكل من يريد أن يُبدي رأيًا في زواجها.

هي لحظة وحيدة، شعرت فيها بحياتها.

شعرت بالدفء والحنان.

تخلَّى عنها بقسوة لا تليق به، لا تليق بدفئه.

انكفأت على ذاتها، ازداد صمتها.

ازدادت نحولاً، حتى إنك لا تكاد تراها.

ازداد غضب العائلة منها.

كانت ابتسام تجلس في نهاية المدرج. لا يعرف الواحد، حين ينظر إليها إذا كانت، تستمع إلى ما يقال، أم في عالم آخر متخيل. عادتها أن تتأمل المشهد في هدوء تام.كأنها ليست جزءًا منه. كانت تعيش في خفة متناهية، لا تكاد تراها، أو تشعر بوجودها إلا حين يأتيك صوتها شجيًا حزينًا. يخترقك، فلا تجد مفرًا من الإنصات إليها بكل جوارحك .ساعتها تحتويك ابتسامتها الودود ونظراتها الحانية. تُوفيت والدتها، وهي بعد صغيرة. تركتها في رعاية جدتها الكفيفة.عرض على والدها أحد أصدقائه أن يزوجه من زميلة له في المدرسة،ولكنه رفض، حتى لا يعرضهم، لقسوة زوجة الأب التي عانى منها صغيرًا بعد وفاة أمه. مارس القسوة على ابتسام، ليس كرها فيها،إنما رغبة في أن تشبَّ جادة وملتزمة. يرى أن البنت (تكسر لها ضلع يطلع لها اتنين).عانت من قسوته وشدته. من أجل ذلك صارت تخجل من نفسها .تخجل من كونها أنثى. تتمنى أن تكون ولدًا؛كي يعاملها أبوها مثل أخوتها الذكور. صارت تعيش على هامش الحياة، لا يشعر بها أحد.

الخوف جعلها لا تعيش الحياة؛بل تكتفي بمشاهدتها فقط.

حاول مدرسها في المرحلة الثانوية أن يخرجها من حالة الانطواء التي كانت تعيش فيها، فلم يفلح. ذهب بها إلى الأخصائية الاجتماعية، التي اكتفت بأن تطمئن الأستاذ، وتقول له إن هذه طبيعتها، وإنها بنت مهذبة.

لما تعب الأستاذ من أن يجعلها تشارك مع زميلاتها في الحصة، اكتفي منها بإجاباتها على كل الأسئلة الصعبة التي تفشل باقي الطالبات في الإجابة عليها، ساعتها كان يصفق لها بحماس، يجعل باقي البنات يحقدن عليها.

الآن حين تدخل مدرج المحاضرات، تختار مكانًا، لا تشارك منه في الحوار الدائر دائمًا بين الأستاذ والطلاب.

لفتت نظر سلوى منذ أول يوم في الجامعة. تعرّفت عليها ،وصارت بينهما علاقة قوية، تسمح لها أن تسخر من طريقة سلوى الانفعالية في التعبير عن نفسها، وعن رأيها في كلام الأساتذة. حين يطلب منها الأستاذ، أن تقول رأيها في كلامه.

تستأذنه خجلة أن تقدم رأيها مكتوبا. بين دهشة الزملاء فى المدرج، يسمح لها الأستاذ بتقديم بحثًا بدلاً من الحوار. تزداد دهشتهم حين يعلن الأستاذ إعجابه ببحثها،هو الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب.

بعد المحاضرة تدافع سلوى بحرارة عن رأيها، وابتسام تنظر إليها بحب، وابتسامتها الساحرة تملأ وجهها وتقول لها:

ـ تعالي أسمعك شوية من القصيدة الجديدة، وسيبك من الجدل البيزنطي بتاعك ده أنت مش هتغيري الكون.

تذهب وراءها، وهي تتحسس معاني الحب السامية التي تصورها ابتسام في قصيدتها. منذ سمعتها للمرة الأولى في بداية العام الدراسي، وهي لا تقدر أن تستمع إلى أشعارها، دون أن تغالب دموعها. حين يمر ماهر زميلهما؛ تشعر بارتعاشة صوت ابتسام، وهي تقرأ. تصمت قليلاً، ثم تواصل قراءة شعرها؛ فتقول لها سلوى :

ـ لأمته هتفضلي تكتمي في حبك ؟

ـ سلوى متخرجنيش من الحالة سيبيني أكمل.

ـ حالتك الحقيقية إنك خايفة من نفسك طلعي اللي جواكي وإلا هيحرقك.

تصمت، ولا تكمل القصيدة؛ فتتركها سلوى؛ تنسحب إلى داخلها ،وتذهب إلى ماهر الذي يقف على مقربة منهما. يتظاهر بالقراءة، وهو في الحقيقة يتابعهما بلهفة تظهر للأعمى. تمد يدها، وتأخذ الكتاب. يتركه لها، وعيناه تتابع ابتسام التي تغرق في ذاتها، ولا تشعر بقلبه الذي تتسارع دقاته. حاول كثيرًا أن يعبر لها عن حبه، ولكن صمتها وخجلها الدائم جعله يتراجع.

سلوى تهمس له :

ـ لأمته هتفضل تحبها من بعيد؟

ـ اعمل إيه؟! بتفر مني، حتى السلام مقدرش اسلم عليها.

ـ اتحرك. عبر لها عن حبك بأي شكل .

بعد أيام وجدها تقرأ في المكتبة. قرر أن يكسر حاجز الصمت. جلس بجانبها، ثم أخذ الكتاب من يدها. وضع فيه خطابًا،وقام بخطوات ثابتة،دون أن ينظر للوراء. تلفتت حولها.تلحظ

الجالسين.يهدأ بالها، حينما تشعر بأن أحدًا لم يره، وهو يدس الخطاب. يدها ترتعش، وهي تخرجه.تضعه في حقيبة يدها،ثم تقوم مسرعة إلى البيت.تتذكر موعد المحاضرة، ولكن لهفتها على قراءة الخطاب كانت أقوى.

سلوى ما تزال تنتظرها، وتحجز لها مكانًا بجانبها. قرأته، ثم فكرت في حرقه خوفًا من أبيها، لكن قلبها لم يطاوعها.

قسوتهم معها جعلتها تنزوي لداخلها. تعلمت الصمت، حتى لا تتعرض لعنفهم. صنعت لنفسها عالمًا متخيلاً خاصًا بها وحدها. تحيا فيه، هي ومن تحب من الناس. تستحضرهم . تحادثهم، و تضحك معهم.

من لا يعجبها تبعده بسهولة ويسر من عالمها، هكذا ببساطة. أليس رائعًا أن نبعد من لا يعجبنا هكذا ببساطة؟! بضربة يد واحدة لا يكون له وجود؟! ما أروع الحياة ساعتها! حين تشتد قسوة أبيها، تدخله هو الآخر عالمها المتخيل هذا.

تجلسه أمامها كما كان يفعل مع تلاميذه الفاشلين، أو كما كان يفعل معها هي شخصيًا.تجلده بانتقاداتها، وتتهمه بأنه رجل وحش وقاسي، وأنه معقد نفسيًا بسبب قسوة أبيه،وزوجته الدلوعة.

لما يبكي أبوها في عالمها المتخيل، يصعب عليها،وتأخذه في حضنها. تطبطب عليه، وتقبل رأسه، ثم تجلد نفسها، هي البنت السيئة التي أغضبت والدها.

توبِّخ نفسها وتقول لها يا بنت هو فقط يخاف عليَّ من الناس. عندها تخرجه من عالمها، حتى لا تسمح لنفسها ـ تلك الشريرة خالص ـ أن تهين والدها الذي تحبه كثيرًا.

لا تخرج من تخيلاتها إلا على صوت جدتها :

ـ يا بسمة . يا بت . انتي فين؟

ـ أنا هنا يا ستي عايزة حاجة ؟

ـ سخني الأكل أنا جعت وأبوكي قرَّب ييجي

ـ حاضر يا ستي

تقوم إلى جدتها الكفيفة. تطعمها، وتقرب لها الماء؛ لتتوضأ، ثم تدخل إلى حجرتها بعد أن تجلس الجدة على مصلاها. تعيد قراءة الخطاب الذي تمنته كثيرًا. تقرأه للمرة الثالثة. تجلس تفكر في الرد . ومن عجب أنها تفكر أن تكتب له ردًا. هل تقدر على كتابة خطاب له؟!

ألا تخشى والدها الذي لا بد سيعرف كل حاجة ؟! تعجب كثيرًا من مقدرة أبيها على معرفة كل الحاجات التي تفعلها، وهي تعتقد أنه لن يكتشفها، لكنه دومًا يفعل.

قررت أن تخبيء الخطاب مع سلوى، التي تسكن المدينة الجامعية .

على سلم المدينة الجامعية، قابلت سمية زميلة سلوى في الحجرة :

ـ إزيك يا سمية

ـ أهلا

ـ سلوى فوق؟

ـ لا بأس.

تعجبت من الجملة التي لم تكن ردًا على سؤالها. لم تفهم منها هل سلوى في الحجرة، أم ما تزال في الكلية .ابتسمت، وقررت أن تسميها سمية لا بأس. سلوى تجلس على السرير في مواجهة باب الحجرة. حينما تراها تضع الكتاب من يدها، وتقوم إليها بفرح. ابتسمت ابتسامتها الشفيفة، وجلست على حافة السرير. سلوى مازالت تحدثها بلهفة عن ماهر الذي قرأ لها بالأمس قصيدة يبوح فيها بحبه. ارتعشت يدها، وهي تخرج خطابه، وتعطيه لها.

أخيرًا قرر الخروج عن صمته ،همست الصديقة فرحة.

تاهت بعيدًا عن عيون صديقتها التي تتأمل ذلك الحنين الذي ارتسم على وجهها. تمنَّت سلوى أن تعترف هي الأخرى لذلك العدو الحبيب الذي يعذبها.

في اليوم التالي كانت الصديقتان في انتظار المحاضرة . مرَّ من أمامهما ماهر. نادته سلوى؛ فأقبل عليهما ملهوفًا. ارتعش قلب ابتسام الغارقة تمامًا في الحب .تاهت بنظراتها .تأكد لها أنها تعشقه تمامًا، ولكنها لا تقدر على النظر في عينيه، وهو لا يقدر على البوح المباشر. قالت سلوى :

ـ ماهر مش انت كتبت قصيدة إمبارح وعايز تسمعها لنا ؟

ـ ياريت ألاقي اللي يسمعني.

بدأ يقرأ القصيدة، وهي تبعد عيونها عن نظراته التي حملها كل معاني العشق والشوق. تختلس نظرة جانبية من حين لآخر. تستمتع فيها بهذه الروح الشفافة، والنظرة الحانية، التي ارتسمت على وجهه .

29

احتار الرجل في حال زوجته التي تغيرت دون سبب مفهوم، هو الذي انشغل عنها بالعمل والدعوة إلى سبيل الله. يقضي معظم وقته مع الأخوة يخططون للسفر والدعوة.حتى صارت بيوت الله بديلا لبيوتهم . يلاحظ تغيرها، ولا يعرف ماذا يفعل. فى كل مرة تكون أكثر صمتًا، وأكثر برودة. تبحث عن مبرر؛ لتنام فى حجرة ابنتها، وتترك له السرير. لم تعد تحتفى بزياراته الخاطفة، كما كانت تفعل فى البداية. كانت منهمكة فى تخريط بصلة، عندما احتضنها من الخلف.تصور أنها؛ لو أحست بانتصابه بين ردفيها تلين. تسيب كل ما فى يدها، وتروح لحجرة النوم. هو فعلها أكثر من مرة. كانت تلك خطته؛ ليحتويها؛ ليستردها من جديد. خطة صغيرة وبسيطة، ولكنها تنجح دائمًا. يراهن عليها، ويعرف أنها لن تقاوم رغبتها طويلاً، وإنها فى النهاية، ستترك كل مافى يدها، وتنسحب إلى حجرة النوم، ومثل كل مرة، سيمنحها فرصة أن ترتب أمورها قبل أن يدخل عليها، وأثناء ذلك سيصلى ركعتين لله. سيدعو لها بالهداية، وبطرد وساوس الشيطان من رأسه. لا ينكر أنه ينشغل عنها، ولكن ليس كل من ينشغل عنها زوجها، تهجره أو ... تردد لحظة قبل أن ينطقها بينه وبين نفسه .. لا ماتوصلش للخيانة .. ثم راح يردد الطيبون للطيبات .. الطيبون للطيبات .

عندما احتواها من الخلف صرخت فيه. دفعته بعنف. التفتت إليه، ووضعت سكين البصل بينهما :

افهم بقى ..مش قادرة يا أخى.

رأى عينيها محمرتين، والدموح تسح منهما. فى البداية ظن أنها من تأثير البصل، ولكنها فجأة انفجرت فى صراخ هيستيرى، وسقطت على الأرض .

بعد عودته من صلاة العشاء، وجدها فى السرير، تلبس قميص النوم الذى اشتراه عندما ذهب لعمرة رجب. نظر إلى ذراعيها وصدرها العارى،وكأنه ينظر لامرأة غريبة. جلس على حرف السرير، وأعطاها ظهره، حتى لا ترى الانكسار فى عينيه. طالت فترة الصمت، وهو جالس يفكر ماذا يقول، لكنها هى التى بدأت بالكلام :

ـ حقك .. أنت جوزى .

عاد الصمت؛ ليخيم على المكان. لحظة فكر فيها فى كل الاحتمالات. استجمع شجاعته :

ـ أسمعى يابنت الناس .. أنا مسافر فى الفجر بإذن الله ..

لم يكن الخبر مفاجأه؛ فلم ترد.عاد يقول :

ـ السفرية المرة دى هتطول شوية .. يمكن تلات اربع تشهر .

قالت بفزع حقيقى : رايح فين ؟

ـ مش مسموح لى أقول .. مصروفك هيوصلك لغاية عندك ، وكل طلباتك، لو احتجتى أى حاجة روحى للشيخ محفوظ.

صمت لحظة، وعاد يقول :

ـ أنا متأكد إنك، هتحافظى على نفسك، وعلى بنتنا ، وهتتقى الله فيا وأنا غايب .

ـ أنت بتقول أيه ؟

ـ من فضلك اسمعينى .. لو كان لى عمر، ورجعت تكونى فكرتى كويس .. يا نعيش بما يرضى الله، يا كل واحد يروح لحاله .. مقدرش أغصبك على حاجة .. لكن هى دى حياتى ..وإرادة ربنا فوق كل شيء.

لم يشعر برجفتها، عندما قام من على حافة السرير. لم يسمع صوت الكلمات التى انحاشت فى حلقها. ولا حس بارتباك المعانى فى رأسها المتعب. للحظة فكرت أن تمسك به، وترجوه ألا يتركها. أن تقول له احتاج عندما استيقظ أن أجد رجلاً فى سريرى مثل كل النساء.لو أنه اهتم بها أكثر من اهتمامه بالدعوة، سينصلح كل شيء، ستكون أما وزوجة يتمناها أى رجل.

ستمحو كل هواجس الماضى من ذاكرتها، ولا تفكر سوى فى رضاه. كانت تريد أن تقول :

ـ بوسعنا أن نبدأ من جديد .. فقط لا تتركنى أنام وحدى ثانية، لكنها لم تجد شجاعة؛ لتقول كل هذا. فقط ، عندما رأته يخرج من باب الحجرة قالت :

ـ مش عاوزاك تكون غضبان عليا .. سامحنى علشان ربنا يرضى عنى .

توقف لحظة، وهو يستمع لطلبها الأخير. نظر إلى الأرض وقال : الهدى من عند الله .

30

انسحبت سلوى دون أن يشعر بها بعد أن أنهي قصيدته. كانت تتمنى أن تجد من يحمل لها مثل هذه المشاعر الحلوة.في اليوم التالي لم يفت ابتسام أن تعنف صديقتها، لأنها تركتها بمفردها معه؛فتضحك سلوى وتقول في تخابث :

ـ لازم تشكريني على الفرصة دي .

ظل الوضع هكذا حب مكتوم ونظرات مختلسة، وقصائد متبادلة، تحمل كل المعاني، ولا يجرؤ كل منهما علي مجرد التلميح بهذا الحب. اكتفي كل منهما بلحظات مختلسة من وراء الزمن.ولكنه في لحظة فارقة ذهبت إليه.أخبرته أن الوقت قد حان ليتقدم لها،فقد تخرَّجا، ولم يعد لها حجة؛لترفض كل من يتقدم لخطبتها. وقف لها أبوها، فالزوج المقترح هذه المرة سعد ابن عمها .

فكَّرت بعقلانية من وقعت تحت القهر النفسي طوال عمرها. إذا لم يكن لها أمل في الزواج ممن تحب، فسوف يتساوى الرجال جميعًا ،وابن عمها أفضل من الغريب.وافقت هكذا ببساطة .

لم تعد تبحث عن مبررات للرفض. صارت أما لطفل جميل، اسمته (ماهر). كانت تتعامل مع زوجها بآلية شديدة جعلته دائم الثورة والغضب عليها. لا يشعر بها.لا يقدر صمتها. يتهمها بالبرود .حاول الانتقام منها. مزق قصائدها، وألقى بكتبها في نار الفرن علي سطح الدار. أقسم عليها ألا تفكر حتى مجرد التفكير في الأدب والكلام الفارغ . صارت تخفي قصائدها التي تكتبها في صندوق صغير، تخبأه في دولابها تحت ملابسها.

حاولت مرارًا أن تقنعه بأهمية القراءة والكتابة بالنسبة إليها، ولكنه يصر أن هذا كلام لا طائل منه. الأولى بها أن تعتني بمنزلها وبنفسها، ولا تفكر في هذه الأمور. يريدها منشغلة به طوال الوقت. لا تفعل شيئا سوى الاعتناء به وبمزاجه. كأنه تزوجها من أجل مزاجه فقط ،حتي اهتمامها بابنها يأتي في المقام الثاني بعده . كثيرة هي المرات التي حاولت إرضاءه، حتى تنال مساحة، ولو صغيرة من الحرية، ولكن لا فائدة. يقسو عليها، ويُحكِّم أباها في أي خلاف .

استسلمت في النهاية، وحسمت أمرها. لم تجد أمامها إلا صغيرها ،وضعت فيه كل طاقات الحب، التي لم تقدر على التعبير عنها يوما. قطعت كل علاقتها بكل شيء، يذكرها بذلك العالم الأثير إلى قلبها. حاولت نسيان ذلك الذي خانها وتركها بمفردها تقف بقبضتها في وجه الريح. لم تعرف بعد مرور كل هذه السنين مبرره الذي جعله يتخلَّى عنها. لم تقنعها حجة الظروف الاقتصادية، التي جعلته لا يقدر على التقدم، لخطبتها. لم تغفر له هروبه من الرد على سلوى، التي بذلت كل ما تستطيع للجمع بينهما.تجنَّبت كل ما يذكرها بالماضي.

والمثير للدهشة أنها تخلَّت عن الشعر بسهولة غير مبررة.

قالت لنفسها إن الشعر يذكرها به. وأن زوجها يُحرِّض أباها ضدها؛ فتوقفت عن محاولات الكتابة.

ربما لأن الكتابة لم تكن رغبة صادقة في نفسها، وإلا كانت دافعت عنها، وأصرَّت على تحقيقها، ولكنها داومت على القول، لنفسها أن زوجها قهرها، واستعان عليها بأبيها، وهكذا صار حلم الكتابة باهتًا وبعيدًا، لا تتذكره إلا حين يضيق صدرها بهذا الزوج، الذي يعاملها، كملكية خاصة به.لم تبذل مجهودًا كافيًا للوقوف في وجه ذلك الزوج، الذي كان يغار من

انفرادها بذاتها في حجرتها. يعنفها دائمًا إذا أغلقت باب الحجرة. يغتاظ إذا وجدها تقرأ في كتاب، أو تكتب أي شيء غير تصويب كراسات التلاميذ.

هل الكتابة كانت متأصلة في كيانها بالفعل؟! إذن لم رضخت لقهر هذا الزوج؟! لا يستطيع الواحد أن يستمر في الكتابة إلا إذا كانت الكتابة فعل حياة بالنسبة له.

31

ما الشيء الذي وجده في سهير، ولم يجده فيَّ؟! كم أحسدها على اختياره لها! هل اختارها حقًا؟! أحببته أنا منذ اللحظة الأولى لدخوله قاعة المحاضرات شامخًا، يجيل ببصره في وجوهنا، التي اختفت ابتسامتها، وحين استقرت عيونه عليَّ عرفت أن علاقتنا لن تكون مجرد علاقة طالبة بأستاذ. قررت أن ألفت نظره إليَّ. كنت أذهب إلى المكتبة. أقرأ في كتبه عن موضوع المحاضرة القادمة، حتى أناقشه فيها. وحين يدخل عم حسين يحمل حقيبته الجلدية المنتفخة، تتسارع دقات قلبي.

تلحظ سهير انفعالي؛ فتبتسم لي ابتسامة أعرف تمامًا معناها، هي صديقة عمري، التي لا تبعد عني لحظة، حتى في المدينة الجامعية. ننام على سريرين متجاورين. كانت تشاركني كل شيء، ولم أكن أعلم، أنها ستشاركني حبه. كان شيئًا مربكًا بالنسبة لي.

لا أرى فيه مجرد أستاذ. دومًا رأيته رجلاً يُشتهى.

عقلي الصغير لا يفهم كيف لبنت أن تُحبَّ اثنين.

أنا لا أنكر أنني أحب عدوي الحبيب، لكن أبدًا لن أسمح لأحد بمعرفة داخلي. كما أشعر بحب عظيم يملك عليَّ قلبي، نحو أستاذي. هل حقا يمكن لأحد أن يحب اثنين في وقت واحد ؟

دخل المكتبة يومًا. وجدني أقرأ في كتاب من كتبه.

ابتسم لي؛ فخجلت. كاد قلبي يفارق جسدي.لاحظ ارتباكي :

ـ ما لك يا سلوى ؟

يا سلوى، الدكتور ينطق اسمي . حروف اسمي تستقر بين شفتيه . قلبي يرقص، ولا أجيب. يتوجَّه بالحديث إلى أمينة المكتبة. يسألها عن كتاب معين، وأنا أطيل النظر في عيونه. أدعو الله في سري أن ينظر في عيوني. لو فعلها لأحبني مثلما أحببته. هو لا يرى غيرها، هي صديقة عمري .

جاءتني يومًا ترقص، وتتمايل محتضنة أوراقها، التي تُدوِّن فيها أشعارها. قبلتني في خدي، و أمسكت بيديَّ، تلف بي الحجرة، ثم قالت بصوت درامي :

ـ طلب مني الجواز.

ـ مبروك .

قلتها جاهدة، وسحبت يديَّ من يديها، وجلست على حافة السرير، والأرض تدور بي.أحاول كتم دموعي.

ـ من قلبك؟!

جملة زلزلت كياني. هل تعرف ما أفكر فيه؟! أي حلم حلمتُ وعُرِف من خلاله مشاعري.

هي تنام على السرير المجاور لي .هل تشاركني أحلامي أيضًا؟! حاولت أن أردَّ عليها بصوت حيادي تمامًا.لم أقدر أن أفرح لها، كما يليق بالأصدقاء قلت :

ـ طبعا .من قلبي ؟

مازلت أتحدث بصوت حيادي، أداري به لوعتي. أخبرها أنني أحبه كأستاذي. الآن سيصير زوجًا لصديقتي. تؤثر السلامة، وتدَّعي أنها صدقتني،ويتزوجان.

بعد تخرجنا ظللت لسنوات أتحاشى معرفة أخبارهما، وحين أذكره أشعر بمرارة وحزن.

32

كانت سلوى عائدة من مدرستها، حين استوقفتها امرأة، تشبه فتاة كانت تعرفها قبلاً. فتاة حاولت كثيرًا أن تتقرَّب منها، ولكنها لم تلق منها غير الصد. فتاة كانت تعشق جسدها، وترسم أجساد الرجال العرايا بعشق. بحثت في ذاكرتها عن الاسم، ولكنها استبعدت أن تكون هذه المرأة، التي تجر خلفها طفلين، وتحمل على ذراعها فتاة حديثة الولادة أن تكون، هي وفاء، التي كانت تحظى بكل نظرات الإعجاب من عيون الشباب. رددت في نفسها، لا يمكن أن تكون هذه وفاء، التي كانت تتمايل، وهي تحتضن كتبها، وتغيظ البنات .

ـ سلوى انت مش فكراني.أنا وفاء فنون جميلة .

ـ وفاء مش ممكن إيه اللي جابك هنا ؟

ـ انتي نسيتي أنا قاهرية أصلا .

ـ فينك يا وفاء.

أنا سمعت عنك من واحدة صحبتي.حكت لي بنتها. قلت لها إنك زميلتي من أيام الصعيد. تصدقي عندها بنت في ثانوية عامة ؟ طب إزاي دي كانت زميلتي في المدرسة، كنا في دكة واحدة إزاي عندها بنت في ثانوي ؟؟

ـ عادي يا وفاء كل البنات اللي كانوا معاي، ومكملوش تعليمهم معاهم بنات في جامعة.

ـ البنت اسمها حاجة أيمن مش فاكرة ،بس بتقول إنك مدرسة شاطرة قوي .خلي بالك منها .

ـ عيني يا وفاء كلهم ولادي .

ـ الروح خلاص انشرخت واللي كان كان .

جملة قالتها وفاء. جعلت سلوى تبهت، ولا ترد، ثم انتبهت على تحركها المفاجئ، فقالت لها :

ـ فين وفاء بتاعة زمان .؟

ـ وعاوزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان.

ثم نظرت للبعيد، وكأنها تمسك بأشياء،لم تكن أبدًا موجودة .

كانت عيونها مليئة بالدموع، حين أمسك بها أحد التوأمين وقال لها:

ـ يالي يامامي علشان أنا جعان .لم تلتفت إليه، وعادت بوجهها من اتجاه السماء، ثم قالت:

ـ أنا مندهشة .إزاي تبقي زميلتي وعندها بنت في الثانوي .بس هي بتشكر في شرحك قوي.وخصوصًا النحو.

ثم غيَّرت اتجاه الطفلة على ذراعها الآخر، وبلا مقدمات تحرَّكت من أمامها، وبعد عدة خطوات التفتت إلى سلوى، حيث تقف ذاهلة من تصرفها الغريب، ولم تتحرك، وقالت :

ـ هشوفك قريب يا سلوى مش كده .أصل جمي جعان.ومتنسيش البت بنت صاحبتي هي اسمها حاجة أيمن .

ومضت دون أن تلتفت مرة أخرى، ومن غير أن تقول أين تسكن، أو كيف ستلاقيها.مضت تاركة فراغًا في الروح، وأسئلة كثيرة تفتحت تنتظر ظهورها مره أخري .

في اليوم التالي ذهبت سلوى إلى المدرسة .لم تنس أن تبحث عن البنت التي أخبرتها وفاء عنها. وجدت فتيات كثيرات اسم والدهن أيمن .سألتهن جميعًا عن صديقة لوالدة إحداهن تُدعى وفاء. قامت فتاة خجلة. أخبرتها على استحياء أنها سمر أيمن، وأن والدتها صديقة لوفاء .

طلبت منها عنوانها، فوصفته لها البنت.

قررت أن تذهب إليها؛ لتزورها. ربما ترى بنفسها السبب الرئيسي لهذا التغير غير المبرر في شخصيتها.

نسيتها في زحمة حياتها.بعد أسبوعين أخبرتها سمرتلميذتها أن وفاء صديقتها أنها تسأل عنها.

قررت أن تذهب إليها بعد أن كتبت العنوان من تلميذتها.في المساء دقت بابها.سمعت صوتها يصرخ. أرادت الانصراف، ولكن الباب فتح فجأة. استدارت بوجهها؛ فطالعها وجهه. تأملته للحظات .خجلت من مظهره وملابسه الداخلية. ارتبكت وهي تسأل عنها.

ملامحه القاسية جعلت ابتسامتها تختفي.اعتذرت عن حضورها دون سابق إنذار.أقبلت وفاء محرجة. رجته أن يدخل؛ ليغير ملابسه. نظر إليها ببلاهة، ودخل إلى الأنتريه. جلس يشاهد

مباراة للكرة.علا صوته، وهو يلعن (أبوخاش) اللاعب الأعمى الذي لا يري الشبكة ، ولا يُدخل الكرة مباشرة .

اختنق صوتها، وهي تقودها إلي حجرة النوم حيث تلبس الصغار ملابسهم بعد الحمام . ارتبكت، وصوته يأتي إليهما واضحًا وقويًا وهو مازال يسب اللاعبين. لفَّت رأس الصغير بالفوطة، وعلامات الضيق والغضب بادية تماما على وجهها . شعرت سلوى بالحرج الشديد وأرادت الانصراف :

ـ أنا آسفة يا وفاء واضح إني جيت في وقت مش مناسب .

ـ لأ إزاي أنا سعيدة إني شفتك إدخلي بس كنت بحمي القرود اللي مش مريحين أبدا .

ـ ربنا يخلي . كل الأطفال شقية مش همه بس .

نسيتها تماما. جالت سلوى بعينيها في المكان. ملابس الصغار ملقاة على السرير. تاهت عيناها في صورة الزفاف المعلقة علي الحائط المقابل لها. تبدو فيها وفاء كمن وقف؛ ليشيع ميتًا، وزوجها يلف ذراعيه حول وسطها، و يبتسم للكاميرا. تذكرتها فجأة، وقالت :

ـ لمؤاخذة يا سلوى تشربي إيه ؟

ـ مفيش داعي أنا حبيت أطمئن عليك وماشية على طول .

ـ لا يمكن ،أنا مصدقت لقيتك .

جلست سلوى تتأملها. تود أن تعرف ما الذي أوصلها إلي هذه الحال.هل مازالت ترسم، أم تنازلت عنه هو الآخر، كما تنازلت عن باقي أحلامها؟!

ـ وفاء لسه بترسمي؟

ـ دي الحاجة الوحيدة اللي قدرت أقاوم واحتفظ بيها.

سحبتها من يدها، واتجهت إلى حجرة جانبية للحجرة التي يجلس فيها. تماثيل صغيرة مرصوصة على منضدة جانبية. لوحات زيتية معلقة على الجدران. توجد لوحة مغطاة بقماش أبيض رفعت الغطاء طالعها وجه يبدو مألوفًا، لشاب أسمر، يشبه إلى حد بعيد وجه كريم. كريم فنون كما كان الكل يناديه. أحبته وفاء حد الجنون. بعد وقوعها في الحب تغيرت تمامًا. لم يعد يشغلها أن تغيظ البنات أو تلفت نظر الشباب.عاشت الحب في أعنف صوره ..صار كل حياتها،و رأت العالم من خلال عينيه.

.همّت أن تسألها عنه، ولكن وفاء فتحت النافذة، ونظرت إلى السماء .نسيتها تماما وسلوى واقفة لا تدري ماذا تفعل همست لها :

ـ وفاء رحتى فين ؟

ـ نظرت إليها كمن يراها لأول مرة وقالت :

ـ الفن هو اللي فاضلي لولاه كنت انتهيت من زمان دمر حياتي كلها بس مقدرشى يبعدني عن الرسم والنحت كل ما يدخل المرسم ويلاقي تمثال جديد ولا لوحة جديدة شايلة نفس الملامح، يتجنن وينزل فيَّ ضرب.

انتبهت سلوى إلى أن معظم اللوحات تحمل ملامحه، حتى التمثال الذي لم يجف بعد له ملامحه.

حين مات هكذا بشكل قدري.أرادت أن تحفر ملامحه في ذاكرتها إلى الأبد. تعرف أنها ستعيده للحياة من خلال الرسم. قاومت رجلاً حاول أن يمحوه من ذاكرتها. حين يثور عليها؛ يدوس على ملامحه الممزقة بحذائه؛ تنظر إليه في برود، وتقول عليك أن تمزق رأسي وذاكرتي حتى تمحوه منها.

لما وجدتها لا تشعر بوجودها، وتنظر إلى السماء ساهمة، شعرت بالحرج، وانصرفت.أحست بنغذة في قلبها.أين وفاء المتألقة التي لم تكن ترى في الوجود أحدًا في جمالها .أين تلك المهرة الجامحة التي أشعلت خيال الشباب وحقد وغيرة البنات، كل البنات؟!

توفت أمها بعد موت كريم بشهورقليلة .تركتها تواجه أبا سُلبت إرادته علي يد زوجة أب تغار منها .فعلت المستحيل تلك المرأة حتى تتخلص منها ، ثم زوجتها لأخيها الصغير.

تحت إلحاح المرأة لم يجد أبوها مفرًا من أن يغصبها على الزواج حتى يُرضي امرأته.

وافقت مرغمة بعد أن أخبرته كثيرا أنها لا تحبه.في النهاية استسلمت له .لم تطلب شيئا سوى حجرة منفصلة تضع فيها لوحاتها. كم كان قاسيًا هذا الرجل حين اقتنع بكلام أخته التي أخبرته أن وفاء ، إن لم يكسر أنفها منذ أول يوم لن يقدر عليها؛ يتلذذ بانكسارها، وتذللها من أجل لوحات وتماثيل يراها تافهة .

33

حين صارحها الطبيب بحقيقة مرضه، صارت تبكي ليل نهار .سهير اتخذته قبلتها التي تتوجه إليها. صار كل عالمها، هو أستاذها الذي عاشت الحياة بين كفيه الدافئتين.لا تكف عن البكاء إلا حين يستيقظ؛ فترسم ابتسامة على وجهها، وتحدثه في ود. تعلمت كيف تجيد إخفاء حزنها.بعد حين صارحته بحقيقة المرض؛ لأنها كانت مضطرة لنقله إلى معهد الأورام .سخر

من فزعها وتقبل الأمر بصلابة تليق به. هناك في الدور التاسع، يرقد تحت وطأة المرض الذي طالما خاف منه، وانتظره في الوقت ذاته.

جرس الهاتف يدق، فتضع كوب الحليب. تنظر إليه مستفهمة،وهي وترحب بالدكتور كامل تلميذه وصديقه وبقية الزملاء.

الراقد فوق سريره الآن يهز رأسه رافضًا استقبالهم. دموعه تنساب في ضعف وانكسار. قال لها ببساطة من يطلب كوب ماء . لو صعدوا سألقي بنفسي من النافذة.

في الصباح رفض استقبال أبيه وأهله. قبلته على رأسه، واتجهت إليهم في الدور الأول . تفهم الجميع وضعه وعرضوا عليها خدماتهم. بابتسامة محاربة شكرتهم، وعادت إليه .سأل عن الصغيرة فقالت له بدلال :

ـ رادا شعاع الضوء وأنا إيه ؟

ـ أنت الشمس اللي بتدينا شعاع الضوء .

أخرجت رأسها من باب الحجرة. كانت البنت جالسة علي الكرسي في حجرة أم محمد تنظر في الفراغ، وتقضم أظافرها. نادت عليها؛ فلم تنتبه. غمزتها المرأة التي كانت تجهز القطن والشاش للطبيب؛ فلم تقم الصغيرة.لم تجر على أمها. ظلت ساهمة لا تتحرك .حملتها في حضنها وعادت إليه. أجلسها بجانبه. كانت تضحك ضحكة منكسرة، وهي تستمع إليه يحكي حكاياته ،ويغني الأغاني التي تحفظها من فمه.نظر إلى المرأة التي تكتم دموعها، وتبتسم لهما، وهما يغنيان.طلب منها أن تأخذ الصغيرة، وتخرج تشتري لها ما تحب. وعدها بأنه سيكون بخير إن هي ذهبت بالصغيرة بعيدا عن جو المستشفي قليلا.

في الطريق تأكد لها أنه سيموت الآن. يريد أن يموت وحيدًا.

أن يرحل دون أن يسبب لها ألمًا تعيش به باقي عمرها.

يرحل في هدوء.طوال عمره يكره لحظات الوداع.

قبل أن تصل إلى ميدان التحرير، أمرت سائق التاكسي أن يعود إلى شارع القصر العيني مرة أخرى.حين دخلت حجرته، وجدته نائمًا، وعلى وجهه ابتسامة راضية. جلست بجانبه تتأمله. تحفر ملامحه في قلبها.

لما طال نومه، حاولت إيقاظه؛ فلم يستيقظ.

رحل دون أن يخبرها أنه أحبها كثيرًا.

رحل وترك لها صغيرة تشبهه، وتجلس على حافة السرير كامرأة عجوز أثقلتها السنون.

رحل دون أن يغيظ صغيرته، ويحتضنها هي دونها.

احتضنت الصغيرة.

جلست بجانبه تبكي .

تذكرت سلوى. رفعت سماعة الهاتف.

وأخبرتها أنه رحل هكذا ببساطة. فعلها ورحل.

تركها وحيدة؛ تحتضن طفلة تشبهه هو لا أحد غيره .

صوت سهير يبدو منكسرًا ويائسًا.سلوى تلح عليها أن تخبرها بما جرى. هي تتصل بها؛ لتأتي إليها. بدموع مكتومة تخبرها أنه لم يتحمل المرض. لم يتحمل ذل الانكسار والانزواء. فضل الموت على أن يظل يخضع للعلاج الكيماوي وشفقة الأصدقاء.

قالت لها أنه هزم الموت.

تحداه أن يأتي؛ ليأخذه.

قرر إطفاء جذوة حياته.

ـ ليه متصلتيش بي؟!

ـ رفض استقبال حد .

- .....

ـ سألني عنك .

- .....

ـ كان أقوي من الموت فهزمه بالرحيل إليه في صمت .

- ..... .

ـ كنت له زوجة وأمًا وابنة . مكانش ممكن تسعديه أكثر منى يا سلوى .

- ..... .

ـ رادا آخر واحدة شافته .رجعت بسرعة تبوسه قبل ننزل.

هل ستحكي لها عن حياته، عن تلاميذه، أم ستأتي برجل آخر يشاركها سريره؟! كيف سمحت لنفسها تلك القاسية القلب أن تذهب إلي أي مكان، وتدعه يموت وحيدا ؟ كيف لم تكن هناك؛ لتمسك يده، حين فاجأه ملاك الموت، وسرق روحه ؟!

قالت لها في ثقة: ليس هو الذي قرر إنهاء حياته. ليس هو الذي استدعي ملاك الموت؛ فطبيعته المحاربة لا تجعله يستسلم أبدا. تصورته اعتدل في سريره، حين وجد الطبيب

مترددًا في مصارحته بالحقيقة. شجعه بالابتسامة التي لابد لم تفارق وجهه، وسأله في اطمئنان عن العلاج وإلى أي مرحلة وصل الورم.

هل اختفت ابتسامتك والطبيب يقول: أن المرض وصل لمرحلة متأخرة؟!

هل اختنق صوتك بالبكاء، أم قبلته في جبينه، وطلبت منه أن يتماسك؟!

اختنق صوت سهير، ولم ترد على هذيان سلوى .احتضنت رادا وجلست تبكي . قامت إليها سلوى تحتضنها وتبكي هي الأخرى .بعدها تركتها دون وداع، أو اتفاق علي اللقاء . صارت كل واحدة تتجنب الأخرى .

سنوات مرت وسهير تضع همها في تربية ابنتها الوحيدة . رفضت الدخول في حروب من أجل ميراثه مع أبنائه من زوجته الأولى. لم يعد يهمها سوى أن يتركوها تعيش في سلام مع ابنتها.

كل ليلة تحكي لها عنه. رفضت أن تأتي لها بآخر، يشاركها حياتها.

34

اندفعت سلوى نحو محمود، بقوة حب ظلّت حريصة على كتمانه سنوات طويلة. نسيت ابنتها وزوجها. بذل الزوج كل ما في وسعه؛ ليشعرها باهتمامه.

كثيرة هي المرات التي صرخت في وجهه وأخبرته أنه يجب عليه أن يراعي مشاعرها.وأكثر هي المرات التي دخلت إلى سريرها باكية من إهماله لها. الآن يشعر بها؟!

الآن يحاول فهمها؟!

أين كان طوال عشر سنوات سمح للآخر- الذي كان مجرد أمل - أن يزحف إلى حياتها، ويتغلغل في مسامها؟!

احتاجت إلى مساندته، ولم تجدها. سمح لحب أن يزحزح أماكن الذين تحبهم في حياتها، واحتل مكانهم. صارت تفكر في رجل غافل الجميع وتوغل داخلها. ليست مجرد امرأة خائنة، لزوج يحاول أن يتغير، وبنت صغيرة تكبر الآن. لم تفكر يوما كيف ستنظر في عيون هذا الزوج وتقول له أحب آخر يا زوجي.لا أستطيع إكمال حياتي دونه. هل حقا يستحق هذا الحبيب أن تضحي من أجله بكل شيء؟!

حبيبها يخبرها أن حبها يجب أن يكون هادئًا، لا يؤثر على سير حياتها وحياته. دائمًا يخبرها أن تثق فيه. تتأكد أنه يحبها.

هي امرأة عاشقة، عشقها يأتي في المقام الأول من حياتها،و عشقه لها لا يأتي على حساب أقل شيء في حياته.

كل تفاصيل حياته لها الأولوية، ثم يأتي حبها.

أهذه هي العلاقة التي تفكر جديًا في إنهاء حياتها الزوجية من أجلها؟!

يقول لها أنه يشعر بها رغم البعد. أنه يفكر فيها ويستحضرها حية ودافئة. باتت تكره الخيال الذي يطالبها به.

تلك المرأة التي تزوجها تحاصره. تحتل حياته، بيته وهاتفه الشخصي وبريده، وهو عاجز أمام تسلطها وقهرها.

يخشى على ولديه منها. حين تشعر بالغيرة تهدده إن تركها ستقتل الولدين. هو يعرف أنها في لحظة جنون قادرة على فعلها . يتجنب إثارتها بكل طريقة ممكنة. حين يزداد غيظها، منه تضرب الولدين بقسوة وحقد، لا يتخيل الناظر إليها في هذه اللحظة أنها أمهما. بعدها يظل أيامًا يعالج الآثار النفسية التي تخلفها ثورتها الهائجة.

هل يقدر على إقامة علاقة سوية مع من أحبها قلبه في صمت ؟ هل يقدر علي أن يجلس معها، ولو للحظات؛ ليطمئن عليها دون أن يخاف من امرأة تمارس عليه، وعلي ولديه صنوف القسوة والحقد؟

تيقنت ألا مكان لها في حياته.استراحت لهذا الفكرة التي تجنبها ألم انتظار حب جاءها بعد السنين الطويلة.هو ليس لها؛ فلم المكابرة ؟! الصوفي الحقيقي، لا يبوح بحاله.

لا يبوح بحبه.

يكتمه عن الخلق جميعًا، ويكتفي بأن يعرف المحبوب هذا الحب.

لا يهمه سوي المحبوب؛ فلم يفضح حاله ؟

هي أيضا لا بد أن تكتم حبًا سيقضي على سعادة أسرتين.

هي أيضًا لابد أن تكتم حالها وألا تبوح به لأحد.

يكفيها أن تعرف أن معشوقها يحبها، رغم الصمت والعقل الذي يدير به حياته. إن بعده موجع ومؤلم، ولكن لا بد منه.

طلبت من تحبه نفسها، فلم تجده؛ فاكتفت منه بحال تكتمه .

35

كانت منال تشعر بحافة الوحدة تجذبها؛ لكنها تنكرها. تتوق لحضن رجل تدفس جسدها فيه حين تطول لياليها. كثيرًا ما تمنت طفلاً جميلاً مثل ذلك الولد الشقي ابن أخيها، الذي يسرع إليها، ويحتضن رجليها ويسألها بلهفة:

- عمتي جبتيلي الشيكولاتة ؟

لسنوات طويلة مضت ظلت مستمرأة لهذا الدور، الذي تلعبه في حياة كل من يحيط بها. يعجبها كثيرا حاجة الآخرين إليها. ترفض الاعتراف بوحدتها. لا تفوتها مناسبة إلا وتعلن أنها سعيدة هكذا، وأن من تزوج ماذا أخذ أكثر منها.

اليوم رأت من جعلها تشعر أنها وحيدة تمامًا.وحيدة وتعسة.

حين تلاقت عيونهما في أول يوم نقل إلى المدرسة، شعرت برغبتها القوية في أن تشم عطر رجل.

أرادت أن تلومه وتقول له: لماذا تأخرت انتظرتك طويلا؟!

لحظة أن وقف أمام مدير المدرسة، يمد له يده بالخطاب، كانت تمر من أمام مكتبه؛ فنادى عليها :

- يا أستاذة منال من فضلك

- نعم يا أستاذنا .

- خدي الأستاذ حسن زميلكم الجديد وجهزوا له جدوله .

تسمرت مكانها،وهو يمد يده.ابتسم تلك الابتسامة التي أسرتها تمامًا . شدتها عيناه، بغموضهما وعمقهما.

لم تنتبه لصوت المدير، وهو يحدد لها الفصول التي سيدرسها. لأيام كثيرة ستجيء ،ستهرب من تلك العيون التي شدتها وأسرتها . ولأيام أكثر ستحرص كل الحرص على أن تقف في محيطها.

كل صباح تجده واقفًا على باب المدرسة.يخفي لوعة انتظاره لها وراء النظارة الريبان السوداء.تقترب من ، تشم عطرها المفضل، ون مان شو. تبتسم له، وتحييه.يمد يده بلطف ويهمس لها وحشتيني،ثم يدخل؛ ليواصل يومه الدراسي.

دوما يبحث عن عيونها.يتأكد أنها تتابعه.يطمئن ،و يواصل حديثه مع الفتيات بصوت عال، وهن يلتففن حوله.

تشغل نفسها بأي شيء، حتى لا تبين غيرتها من الفتيات. هي تكبره بست سنوات؛فهل ينسى هذا الفارق حقًا؟!

كأن الصغيرات الخبيثات يشعرن بحبها وغيرتها.

يتعمدن الضحك دون سبب واضح. يتبادلن النظرات فيما بينهن، وينظرن نحوها. يبحثن عن اللهفة البادية على وجهها.

جميلة هي اللحظات التي صمدت أمام عيونه، وهو يحادثها في أمر من أمور الدراسة. كم تعذبت بهذه اللحظات ليال طويلة!

كم تمنت أن تجلس معه بعيدًا عن هؤلاء الخبيثات اللاتي يحاصرنها.

فاجأها اليوم بطلبه منها أن يتقابلا بعيدا عن جو المدرسة .

تركته دون أن تقوى علي الرفض أو القبول. تقف أمام الفصل تفكر في طلبه. لم تشعر بنظرات البنات اللاتي ينتظرن دخولها الحصة. في نهاية اليوم وجدته في سيارته على ناصية الشارع . بعيدا عن عيون الآخرين، ركبت بجانبه، كمراهقة صغيرة تذهب إلى موعدها الغرامي الأول. تشغل نفسها بالطريق والناس، وتتجاهل عيونه في المرآة.

يتابع تغيرات وجهها،ويده تنقر على عجلة القيادة لحنًا راقصًا ينساب من المسجل المثبت في السيارة.

في ناد بعيد على أطراف المدينة جلست وجلة.

تحدثت عن نظرة الآخرين، وفارق السن بينهما، وخوفها من كلام الناس استمع لها باهتمام وبعد أن انتهت، أخبرها أنه لا يهمه شيء مما قالت.

ولما لم تقدر على إخفاء الشمس بإصبعها، فقد وافقت.حددت له موعدا؛ ليقابل أخوتها. لم تنس أن تخبره عن ذلك الذي انتظرته طويلا، ولم يكلف نفسه عناء السؤال عنها.

36

صار كل همها أن تجد صديقا تتعامل معه دون خوف ، دون الشعور بإحساس الفريسة أمام الصياد. تبحث أيضا عن حبيب تتيه معه فى وجود رومانسى ، الرومانسية كانت أحلامها الصغيرة التى لم تتمكن من تحقيقها فى يوم ما ، وظلت تحرك نوازع قديمة ، نوازع مستدعاة من قصص وحكايات العاشقين ، وأفلام الفرسان فى العصور الوسطى . تريد رجلا يطير بها ويصبح بطل أحلامها كانت تدرك أنها لاتبحث عن رجل، بل عن حلم.

خرج إسلام ابنها من باب المدرسة.شهقت ووضعت يدها على فمها، وهي تراه ممزق الثياب، والتراب يغطي وجهه.

مالت بنصف جسدها؛لتفتح له باب السيارة. نظر إليها نظرة غاضبة، وفتح الباب الخلفي.

جلس واضعًا رأسه بين كفيه الصغيرين.التفتت إليه تمازحه :

- أصلي أنا السواق بتاع أبوك ، تعال اقعد جنبي .

يدير وجهه لخارج النافذة، ولا يرد .

- مالك يا إسلام فيك إيه .

الدموع تنساب على الوجه المترب. يهرب عبر الزجاج إلى لا شيء .

- تعال اركب جنبي . مالك .

واجهها بنظرة تحد وغضب مكتوم ولم يرد.

في المنزل ألقى بحقيبة كتبه، وأسرع إلى حجرته.أغلق الباب، وبدأ يبكي. ظلت تناديه وترجوه أن يفتح الباب. لا يستجيب لتوسلاتها. دقت الباب بعنف وهددته أنها ستخبر والده؛فتح الباب، و من خلال دموعه حكى لها عن محمد زميله، الذي عايره بأن أمه على علاقة بالأستاذ هشام مدرس الإنجليزي بالمدرسة :

- قال لي مامتك مصاحبة مستر هشام ، بس أنا مسكتلوش مرمغته في الأرض وقطعت وشه .

قلبها طبَّ في رجليها، وهي تستمع إلى شحتفة الصغير. من وسوس لهذا الشيطان الصغير بهذه الأفكار؟!

ارتبكت، وهي تقنع الصغير أن مستر هشام زميلها فقط. وأن الزملاء يتعاملون مع بعضهم البعض.

صرخ الولد فيها وقال لها :

- أنا شفتك في المعمل، وهو بيضحك معاكي ويديكي البتزا في الفسحة .

- ماشي يا حبيبي .. عادي هو اشترى لينا كلنا.

- طيب ولما بيتصل بيك كل يوم بالليل.

انقبض قلبها، وندفسته في صدرها، وجلست تبكي.قالت في نفسها: كبرت يا إسلام وكسرت قلب أمك.بعد هذا اليوم الذي كبر فيه فجأة، وشعر بالغضب والحزن، وثار لأن صديقه عايره بأمه ، جلست غادة أمام خالد بتحفز حقيقي.

طلبت منه الطلاق .ظلت تتحدث، وهو جالس في صمت، لا يصدق ما يسمع .لم يحدث شيء جديد سوى الخلافات العادية التي تحدث بينهما منذ أن تزوجها . حرص دائمًا على عدم الوصول بالعلاقة إلى مرحلة النهاية.

ثارت كثيرًا، وطلبت الطلاق، ولكنها في كل مرة تهدأ وتأتي إليه تدفن وجهها في صدره وتبكي. ساعتها يقبل بكاءها على أنه اعتذار ويواصلان الحياة.

الآن يلمح الكره الحقيقي في عيونها. صبر كثيرًا على أخطائها،حتى مشاعرها نحو المرحوم أحمد زوج أختها.اعتبرها خيالات مراهقات،وانتهت.يثق أن خطاباتها لم تغادر درج مكتبها . اعتبرها علاقة مرضية. ربما أراحه أكثر أنه لم يعرف بهذه العلاقة إلا بعد موت أحمد. لماذا تُصر على جرحه ؟! ولماذا يصبر عليها .؟!

ربما يرى أن صبره عليها كان من أجل أولاده. ربما انفصالهما أفضل للطفلين. حتما يدمران أعصاب الطفلين بخلافاتهما المشتعلة طوال الوقت.

خالد يعلم إذا ترك لها الطفلين، لن تقوم بأي دور في حياتهما. هي لا تفكر إلا في نفسها فكيف تعتني بهما؟!

لم يجد في نفسه القدرة على إنهاء هذه الحياة، وهذا التعلق المرضي بعلاقة تبدو فاشلة لمن يدقق فيها. اكتفي منها بالمحافظة على مظهر الأسرة المستقر وكل واحد منهما يبحث عما يريحه.

37

سلوى التي كانت صغيرة خالص وجالسة وراء المكتب ترقب أنفاس منى المتلاحقة، وهي تعضُّ على شفتيها تمنَّت أن تجرب ذلك الشعور. ظلت تنتظر دورًا لم يأت أبدًا. مازالت سلوى تجلس تنتظر أن تأتي لحظة مثل تلك اللحظة التي حلمت بها ولم تأت .\ ما تزال تحلم أن تحيا كما تريد.

دائما لا تفعل إلا ما ينتظره الآخرون منها. تحرص على أن تفعل ما يجعل أباها يفخر بها. في الجامعة طالما راقبت علاقات حب تنمو بين صديقاتها وأحبائهن. واكتفت فقط بالتمنِّي. حلمت بالحب ولم تحققه. حتى ذلك الشعور نحو أستاذها، وزوج صديقتها لم يدم طويلاً. كانت تهرب من أي علاقة تنشأ بينها وبين أي شاب. ربما لو تجرأ محمود، وتقرب منها، لاختلف الوضع تمامًا. تحذير أمها الدائم لها حتى لا تعفر شال أبيها ـ الذي ظل ناصع البياض العمر بحاله ـ يجعلها تخشى الدخول في تجربة. لما تزوجت تخيلت أنها تحب زوجها؛ فوافقت. لما أحست بالحب الحقيقي، حين قابلته للمرة الثانية بعد غياب عشر سنوات، واعترف لها بحبه كانت قد ارتبطت بكلمة مع الرجل الذي أصبح زوجها. لم تستطع أن تخلف وعدها وأتمت الزواج. لم تقدر أن تصارح نفسها بهذا الحب الذي شعرت به ينغز قلبها.

ماذا حققت حين كسبت العالم وخسرت نفسها ؟!

من يومها ظلت لا تفعل إلا ما ينتظره الآخرون.

بعد موت أبيها لم تفعل إلا ما يجب على امرأة متزوجة، تحترم زوجها وإن لم تكن تحبه.

بعد أن صارت مدرسة لم تعد تفعل إلا ما ينبغي على مدرسة تحاول أن تكون مثالية أمام تلاميذها.

حين بدأت علاقتها بغادة رأت فيها نفسها. رأت فيها الشخصية التي تتمنَّى أن تكونها. تمنت أن تكون قادرة على الاعتراف بضعفها. حسدتها، لأنها تعبر عما يدور داخلها، وإن عرضها ذلك لغضب الآخرين.

هل ستكمل حياتها وتتجاهل نداء قلبها؟ هل تستطيع أن تنظر في عيون زوجها وتقول له أحبك يا زوجي العزيز وهي تفكر بآخر؟! حين يدخل إلى روحها،كيف تغمض عيونها، وهي تفكر في آخر غيره؟!

من يجد الحب مثل من وجد أرضًا مسحورة متخيلة. يضع عليها قدميه هو وحبيبه. يتمسك كل منهما بالآخر، ويحرصان على أن تظل تلك الأرض السحرية المتخيلة ثابتة تحت قدميهما؛ مثل سندباد، حين وجد جزيرة الحوت، ونزل عليها، هو والبحارة الذين كانوا معه. عاشوا عليها. أشعلوا النار لإعداد الطعام، فتحركت الأرض تحت أقدامهم.عرفوا أنه كان حوتًا عظيمًا. جفت المياه من تحته. تكونت عليه طبقة من الطين، ونمت عليه الأشجار والحشائش، واستكان الحوت على هذا الوضع. جاء سندباد، واعتقد إنها أرضه السحرية. عليها أن تجد لها، ولحبيبها أرضًا سحرية. أن تحرص عليها. تعض عليها بأسنانها .حتى لا تتحرك من تحت قدميها.عليها أن تصنع لهما حياة موازية تمكنها من الاستمرار في الحياة.

38

منذ وقفت سلوى أمام نفسها وقالت ـ دون خوف أو حتى خجل من الاعتراف بعلاقة تبدو مستحيلة وخاصة في مثل ظروفها ، أحبه. هل قالت أحبه أم قالت كنت أحبه؟!

هي لا تعرف، لكنها منذ تلك اللحظة وهي تشعر بالضعف. أصبحت هشة وحزينة. حزينة لدرجة البكاء، لأقل شيء. أين ذهبت تلك الشخصية المستقلة القوية ؟!

كانت تملك القدرة على احتواء الآخرين، ولحظات ضعفهم.طالما أشعرتهم أنها موجودة من أجلهم هم فقط. صارت صامتة وحزينة. لم تعد تملك تلك الروح المحاربة التي تمكنها من الوقوف في وجه الريح، دون خوف أو قلق.صارت متسامحة مع الحياة بشكل عام.

في اليوم الذي وقفت فيه انتصار أمامهما، وقالت لغادة بصراحة ودون مواربة إنها آسفة عن كل ما سببته لها من آلام، وانصرفت دون أن تنتظر رد فعل الصديقتين اللتين اندهشتا تماما من تصرفها ابتسمت سلوى،وقالت في أسى انتصار في حالة حب.

غادة لا تخجل من أخطائها؛بل ربما تستنكر أمر أولئك الذين يضيعون حياتهم من أجل التجمل والتخفي من عيون الآخرين. سلوى تتمنى أن تصير مثلها. تعترف لها بتلك العلاقة التي بدأت دون تخطيط أو استعداد. لا يسعد المرأة شيء أكثر من سرد تفاصيل حبها،وعلاقتها بحبيبها، وهي حرمت من هذه المتعة حتى مع أقرب الناس لقلبها.

ذهبت للقائه في المساء،جلس أمامها يُقبل يديها.هي لا تُبدي أي رد فعل على مشاعره المتدفقة الدافئة. في تلك اللحظة كانت تشعر بمشاعر غير واضحة أو محددة بالنسبة لها. صورة انتصار التي تراها لأول مرة منكسرة وحزينة تحتل مساحة فكرها، وهو يهمس لها بحبه.

ارتعش جسدها، وهي تبكي. سألها هل ندمت علي علاقتهما. نفت ذلك بشدة، وتعجبت من اليقين الذي تتحدث به عن علاقة لا تقدر على البوح بها، حتى لأقرب الناس إليها.

كثيرات يحسدنها على هذا الزوج الرائع الذي لم تشعر بالندم، وهي تخونه الآن.

أداؤه في التعبير عن الحب لا يعطيها فرصة الشعور بالخيانة.أخلصت لرجل، لم يعرف يوما كيف يشعرها بحنانه. تشعر الآن أنها ستخون نفسها إن تخلت عن هذا الحب.

وبذات اليقين الذي نفت به الندم على علاقتها له،أعلنت أنها ستتركه. جالس أمامها يقبل أطراف أصابعها، ويشعل النار في روحها قبل جسدها. قررت أن تبعد عنه.

ضبطت نفسها تفكر في كيفية تحمل الحياة بعيدًا عنه. قررت أن تنسحب من علاقة لا يعقل أن تستمر هكذا بدفئها وحنانها. هو جالس الآن يضمها بحب. وهي تفكر في كيفية الهروب من تلك اللحظات التي لا بد ستكون موجعة ومؤلمة. كانت صادقة تماما وهي تفكر في البعد. لم تعد قادرة على التعايش مع هذه الازدواجية. عليها أن تقف بصدق مع نفسها.

سحبت يدها من بين كفي محمود، الذي ما زال جالسًا أمامها يحدثها عن خطته لاستمرار علاقتهما دون أن يؤثر ذلك على زواجها وزواجه. أخبرته ببساطة أنها لم تعد قادرة على مواصلة حياتها معه . توقعت أن يحتضنها. يقبلها. يسكتها بشفاهه. يعلن عدم قدرته على العيش دونها. لم يفعل شيئًا من كل توقعاتها. أخرج سيجارة، وبدأ يدخن، وينظر في الفراغ.

تنتظر بلهفة أن يتكلم. بعد أن طال صمته، وانفعالها، تحدث بهدوء من يحلل موقفًا بعيدًا عنه .حاول أن يكون منطقيًا ومحايدًا.

أخبرها أنه لا ينكر أنه يحبها. ولا ينكر أنه يتمنى أن يعيش معها، ولكنه لا يستطيع أن يطالبها بهدم منزلها، وتشتيت ابنتها بين أب وأم مطلقين.

لم تنطق بكلمة. تشعر كأن يدين هائلتين تضغطان على رقبتها. تذكرت الآن كل الكلام، الذي كانت تقوله غادة عن متعتها المتخيلة، وهي تفكر في خديعة الرجال والانتقام منهم.

ابتسمت، وتناولت حقيبتها، وقامت. أمسك بيدها، وقال كلامًا كثيرًا عن الحب والإخلاص.

لم تكن تسمع حرفًا مما يقول. قالت بصوت ميلودرامي :

- أنت لم تخن، ولكنني خنت نفسي.

خرجت هادئة هدوءًا أدهشها. لم تكن تتخيل أن تجلس أمام من تحب، تخبره أنها ستتركه، و يقول لها مثل هذا الكلام الساذج عن الحب والإخلاص. أيام كثيرة مضت، وهي تنتظر عودته إليها مشتاقًا،ملهوفًا.حين بعدت خطوات عنه، اكتشفت أن هذا الحب الذي تصورته أكبر من كل أحلامها صار الآن باهتا غير مؤلم.

هل الواحد قادر على خديعة نفسه إلى هذه الدرجة؟!

. هل الواحد يصنع لنفسه وهمًا عظيمًا ويعيش فيه؟!

لكنها فقدت جزءًا من روحها في الطريق. لم يعد هناك شيء يمثل لها فرحًا حقيقيًا. اكتشفت زيف ذلك الدور، الذي كانت تقوم به منذ سنين في حياة الآخرين. كانت تبحث طوال الوقت عمن يحتاج لرعايتها. وقوفها الدائم بجانب الناس كان يرضيها هي. كان من أجل أن تشعر بأهميتها في عيونهم.

39

ماذا تريدين مني؟!

تريدين رسم روحي بحروف وكلمات لا معنى لها.

لست قادرة على الإمساك بروحي.

حروفك باهتة وصماء.

هل تعرفين كيف أبين لك؟! لو أنك أمسكت بكاميرا تعمل بأشعة تحت الحمراء مثلاً .

أشعة تلتقط الطيف .

ساعتها سأدعك تصورينني، وتضعين صورتي على غلاف روايتك.

ربما لو نجحت معي، لو عرفت كيف تغرينني أن أرسم لك خطوط وجهي، وتعاريج روحي، وربما أغالي،فأرسم لك ذاكرة حواسي، ومناطق الحس في جسدي .

أنت لا تجيدين رسم النساء؛فلم الإصرار على مهارة لا تملكينها؟!.

هل جربت مثلاً أن تستمعي إلى صوت مها الحسيني، وهي تمارس شبقها الجنسي من خلال صناعة مساحة التميز في كل أمر تفعله؟!

فقط؛ لينظر إليها الواحد نظرة إعجاب بمهارتها ويُثني عليها. ساعتها تشعر بالارتواء الذي قليلاً ما يقدمه لها زوجها.

محمد زوج مها بالغت في تصويره.

التجشؤ، والتهام الطعام كان صورة كاركاتيرية، تشبه صورة رجل لا يفعل شيئًا سوى اعتلاء زوجته.وممارسة فحولته المتخيلة فقط في ذهنك أنت وهو.

هل جربت أن تنظري، لعيون غادة، وهي تدعو طوال الوقت في سرها على زوجها؟!

هل سمعت دعواتها الدائمة لله أن يموت من يغتصب روحها غصبا عنها؟!

غادة تراوغك، وتمارس عالمها السري من وراء ظهرك.

وأنت تصرحين أنها لا ترتكب ما يثير حولها الأقاويل.

صدقيني، لو إنك أتحت لها مساحة من الحرية؛ لفعلت كل شيء تريده، دون خوف على صغيرها الذي بدأ يكبر، و يراقبها. ولن يهمها ساعتها تعليقات زميلاتها، أو الخوف على سمعة زوجها أو أبويها. فلتذهب هذه الصورة العائلية المتجمدة إلى الجحيم. جسدها وروحها يتعطشان للحرية. استمعت إليها ـ أنا ، التي لا تُرَى ـ وهي تلهث في التليفون حين استمعت، لحديث ساخن من واحد من معجبيها الكثيرين. دقيني تعاطفت معها، وتمنيت أن تكسر حاجز الفضيلة الذي صنعته لها أنت بيديك، وتخرج للحياة. تترك الشرنقة المصطنعة تلك، وتصرخ كما تريد. تمارس القفز والحياة مع من تحب. لنعقد اتفاقًا. لا تصنعين لي صورة تدعو للأسى.

صورة، تجعل القارئ لروايتك البائسة تلك يتعاطف معي.

لا تقدمين نيابة عني مبررات لما تسمونه سقوطًا.

أنا لستُ ساقطة.

ولستُ امرأة عُذبت برجل ما قهر روحها.

لا زوج لي يقهرني.

ولا أخ أكبر مارس على الضغط والحبس.

ولا أب تخلَّى عن أمي، أو عاملها بقسوة.

أنا بنت عادية خالص.

تربيتُ في أسرة عادية ومستقرة.
وتزوجتُ رجلاً، لم أستطع تحمل ثقل روحه على؛ فتصرفتُ بمنتهى الشجاعة، وطلبت الطلاق. وأعيش حياتي وفق صورة رسمتها، وحددتها أنا، بدقة، ولا فضل لأحد في صناعة إطارها.
وأرى كل نسائك بائسات معذبات بحرية متوهمة، حرية لم يستطعن دفع ثمنها. صنعت خطوط شخصياتهن بدقة وقصدية. جعلت كل نسائك فاضلات ومقهورات.
وأنا أري أنهن فاضلات رغم أنوفهن .
جرِّبي مثلا أن تتيحي الفرصة لسلوى، التي ظلت تعشق بخيال ورومانسية القرن السادس عشر،ولما أتيحت لها الفرصة؛ لصنع حياة موازية مع من تحب، جعلتِها أنتِ في فعل غير مبرر تقرر تركه. ربما لو صنعتِ حدثًا محفزًا لها على البعد، ومبررًا لقرارها الذي يبدو غير مفهوم لمن له عقل يفكر؛لكان لقرارها معنى.
شعرتْ بلوعة الحب وروعته؛ فاتخذتْ قرار البعد.
ومحمود قبل قرارها هكذا ببساطة كأنها تعتذر عن موعد معه وليس قرار هجره؟!
ربما لم يكن يحبها بالقدر الكافي، وإلا لكان تمسك بها،وبكى إليها حتى لا تتركه.
ضعي هؤلاء في تجارب حقيقية، وانظري هل يتمسكن بالفضيلة فعلا ؟!
أم يمارسن السقوط، كما نساء عاهرات في بداية القرن الماضي.من قال أنك لا تخافين؟! ومن قال أنك قادرة علي مواجهتهم والدفاع عن فكرتك ؟! من قال أنك ستكونين مقنعة لهؤلاء الخبثاء الأشرار الذي سيشرعون يد الاتهام في وجهك بمجرد أن يقرأوا ماتكتبين ؟! هذا كلامك أنت . ولكنهم سيضحكون من وراء ظهرك، ويقولون في سرهم ،امرأة متحررة تعرى روحها.
سلوى أتيحت لها الفرصة لممارسة الحياة مع من انتظرته طويلا . سلوى كانت قادرة علي صنع حياة موازية؛ لتستمر في حياتها مع زوجها الذي يتغافل عن توق روحها.
ومع ذلك جلست في لحظة رومانسية . وقالت لحبيبها أنها لا تريد أن تكمل اللعبة .
نعم لعبة. لو احترقت حقيقة بنار العشق؛لدافعت عنه.
وأنت بمنتهي السهولة جعلت الحبيب يقبل هذا، ويحترم رأيها . وكأنه لم ينتظرها خمسة و عشرين عاما.
وكأنه لم يسم ابنته على اسمها.

أنت لم تقولي أنه سمّي ابنته الأولى سلوى.

أعرف .

سمعته يقول لها في أول لقاء لهما.

وكأنه لم يبحث عنها في كل النساء اللاتي عرفهن بعد ذلك. وكأنها لم تكن نغزة في القلب تعذبه.

ربما لو ذاق عسلها،ما فرط فيها!.

لأنك تخشين من ربط سلوى بك لم تصنعي لهما موقفا يتحدان فيه روحًا وجسدًا. أو حيت للقارئ ـ الذي لن يصدقك طبعا ـ أنه اكتفي بتقبيل أطراف أصابعها.

اكتفي بشم رائحتها.

وهل أحد يصدق أن رجلاً تمنَّى امرأة منذ أن كانا سويا في الصف الثالث الإعدادي، ولا يلتهم كل ذرة في جسدها حينما يراها؟!

هل هناك قارئ يصدق مسألة الحب الأسطوري تلك، دون أن يربطه بتفاصيل جسد عطش للحنان، كما بطلتك سلوى؟!

لو شم رائحة عرقها المختلط برائحة عطرها وشهوتها ما سمح لها بإنهاء غير مبرر، لعلاقة بدأت الآن.

لكنها العفة المزيفة التي تضعين فيها هؤلاء النساء المعذبات بالعشق. والفاضلات فقط،لأنك لم تضعيهن في تجربة. لو أنهن وضعن في تجربة، وظللن فاضلات لعذرتك في كل أمرك .أنا أكثر حرية وفضيلة منهن. لأنني أمارس حياتي كما أريد.وأحترم جسدي. وأقدر رغبة روحي. لا أحب تأثيم نفسي أو الآخرين.

الحرية الحقيقية أن أعبر عن شعوري بالطريقة التي ترضيني. وأحترم رغبات جسدي.

فقط أحب ملمس يدي بدفئها وطراوتها على أيدي عجائز أكلت السنون خلايا الإحساس في بشرتهم.

أنا أجيد دغدغة هذه الخلايا؛ لتنمو.

وهذه الأجساد المتآكلة؛ لتتجدد.

لا أشعر بتقزز حين تقترب شفتي الطريتين النديتين من أفواه مخوخة.

أعالج رائحة أفواههم العفنة بالعطور التي يقدمونها لي،

وباللبان و حبات القرنفل .

حتما لا تتخيلين أنني أتحمل ملمس جلد جاف وروح متيسبة من أجل زجاجة عطر؟!

أنتشي، وأنا أري تلك القطعة من الجلد البني المختفية في خجل بين الساقين حين تتلمسها أصابعي.

أعشق الحياة حين تسري في العروق الجافة.

أراقب عن كثب الدماء حين تتدفق في شرايين ماتت؛ فتنتفض قطعة الجلد البنية وتتحول إلى طفل صغير متوتر،يحن ليد أمه حتى يهدأ.

وتكون يدي هي يد الأم في تلك اللحظة.

يدي قادرة على القيام بأدوار عدة.

حتما لن تتخيليها، وأنت تُحدِّين من دور أيدي نسائك التي تكتفي بحشو الحمام.

أو حتى نحت ملامح تمثال، لحبيب مات.

العجائز يجيدون التدليل والحنان.

العجائز يفرحون، حين تنتفض جلودهم المختفية في خجل، وتتحول إلى صغار، تقفز، وتتوتر وتمتلئ رغبة.

يجيدون دفني في صدورهم الممتلئة بحيوات قديمة وذكريات منسية. يجيدون الإرواء النفسي؛ فلم لا أدع أطفالهم، تتقافز، وتشخب ماء الحياة؟!

أنا؟!

لا أرغب في إسكات توتري. لا أرغب لحظتها في إسكات ذلك الصوت الصارخ من أعماقي طلبا للمساتهم.

أخشى أن يبالغوا في تقدير حجم الدور المنتظر من أطفالهم الصغيرة المتوترة.

ويصدقون أنهم قادرون على إسكات نداء حواسي.

ويخيب أملهم حين أظل أتلوى دون ارتواء؛

فأمازحهم، وأذكرهم باتفاقنا.

لا يد تمتد؛ لموضع النار عندي.

أستلذ بالنار التي تحرقني.

لا أريد إطفائها إلا هناك على سريري.

وصورته، تحتل الكادر من ذاكرة جسدي.

وصوت ضحكاته ودغدغاته تهيجني أكثر.

وملمس يده التي تسكن يدي الآن، تمتد إلى ناري؛ لتجعلها بردًا.
بنت صغيرة. عرفت يد خالها، التي لم تكن مدربة جيدًا كيف تلامسها. جاء إلى أخته الوحيدة، بعد حصوله على الثانوية العامة. امتعض الزوج قليلاً حينما عرف من أخته أنه سيعيش معهم. المرأة التي عرفت دومًا كيف تجعل زوجها يستكين لها.
يتقبل أشياء يعترض عليها في البدء، لم تبذل مجهودا عظيما؛ لتقنع زوجها بوجود أخيها طالب الجامعة. فقط لامست رقبته بشفتيها وقالت :
ـ علشان خاطري يا حسن ده أخويا، يرضيك أهلي ياكلوا وشي؟
بضع كلمات؛فيوافق الرجل.لكنه يحتار أين سينام في شقة صغيرة، تتكون فقط من حجرتين وصالة. ترد المرأة بحسم :
ـ هينام مع نجوى .
يعاود الرجل الضيق؛ فتعاجله : ـ ده خالها، وهي لسه طفلة.وينام الخال بجانب الجسد الطري. يعرف كيف يدفأه من برد الشتاء. كما يعرف كيف يجعلها، هي الصغيرة ألا تفارقه. بل ربما غضبت كثيرا حينما كان يذهب إلى أمه في قريتهم. تظل تبكي، وتدبدب الأرض بقدميها، حتى يأخذها معه.
صار فرحها ودفئها. ولم تعد تجلس مع أحد غيره. وحين دس لها ابن الجيران خطابًا غراميًا، جرت عليه؛ لتخبره؛ فخبأها في صدره،ولامس حبتي الخوخ الصغيرتين.
وفقط لم تعد تريد، أو ترى غيره.
ولم تعد تسمع سوى صوته .
وحين فاجأتها دورتها الشهرية، ولم يكن معهما أحد في المنزل . غسل لها بين فخذيها. ألبسها ملابسها.جلس يفهمها ما يحدث لها. صار لها كل الأشياء المريحة والمحرقة .
وصارت له متعته الوحيدة.
لازم أخته سنوات الدارسة.
رفض خلالها كل عروض الزواج التي نقلتها له.
لم يبعده عنها سوى موته قبل أعلان نتيجة الليسانس ببلهارسيا قديمة أكلت كبده. ذلك الموت قتل موطن الروح فيها. تحولت بعده إلى جسد بلا روح. وإلى روح بلا بهجة. كان موته حل فوقي، لم تعرف كيف تتعامل معه.حل هكذا، جاء ليُنهي حالة غير مفهومة. حالة لا تستطيع أن تحقد عليها. وأيضا لا يمكن لك أن تتعاطف معها كل الوقت.

40

حلم ظل يراود المرأتين طويلاً.

غادة التي ارتعشت، وأصابع ماري تداعب حلمة صدرها. لم تنس مطلقًا تلك اللحظة، وفكرت أن تجرب ذلك الشعور مع سلوى .

سلوى أيضًا في حياتها لحظة غامضة ظلت تحلم بها هي الأخرى . انتظرت أن يأتي دورها؛ لتجرب ذلك الإحساس الذي بان على وجه منى، وأصابع بدور تتحسس أسفلها. تمنت هي الأخرى أن تجربه، ولكن دورها لم يأت أبدًا.

ظلت تحلم بتلك اللحظة الغامضة كثيرًا .

كانت سلوى في زيارة لغادة، ولم يكن زوجها موجودا.

ظلت المرأتان تتحدثان عن الخيبات الكثيرة التي مرت بهما.

لما طال سرد الخيبات، ولم ينته، لم تجد غادة إلا أن تحتضن صديقتها، وتضحك ضحكًا هستيريًا.

اندهشت سلوى من رد فعلها.

ضحكت هي الأخرى دون أن تسأل عن مبررات للضحك.

قامت غادة؛ لتصنع شيئًا تشربانه.

ـ تشربي إيه .

ـ لمون خلاط .

غابت سلوى في مساحة من التذكر، فلم تسمع غادة وهي تنادي على الأولاد أن يأتوا؛ ليشربوا الليمون. دخلت بالصينية وعليها أكواب الليمون والرغاوي البيضاء تعلوها.

رشفت سلوى من كوبها رشفة، ثم بدأت تحكي لها عن لحظتها الغامضة مع بدور ومني ومرفت.

تعجبت غادة من المصادفات الغريبة؛ فكل منهما عاشت أحداثًا مشابهة لما عاشته الأخرى.

لم يفتها بالطبع أن تحكي لها عن ماري زميلة الحجرة، لساعات قليلة، ولو أن ذكري ماري واضحة وقوية ،أما ذكري بدور يشوبها الغموض، وتصورات الطفولة .

الآن كل منهما قادرة على البوح بأمنياتها.

كل منهما قادرة على لمس لحظة كانت تبدو مستحيلة في وقتها.

عادت سلوى إلي كوب الليمون الذي انطفأت الرغوة من على وجهه، وتركت لأصابع غادة التي تبدو مدربة تداعب حلماتها. ضحكت المرأتان مرة أخرى، وقامت غادة؛ لتغلق باب الحجرة .

هويدا صالح

مارس 2004